علي الشرقي

العرب والمعارف

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م

شركة الطبع والنشر الاهلية ذ٠ م٠ م بغداد ـ عراق

تمهيـــد

لقد تملح الادب المصري قائلا ان الله سبحانه خلق النيل والنيـل خلق مصـر ، واذا تملح الادب العراقي فلابد وان يقـول ان الله خلق الفراتين والفراتان خلقـا العراق ، لان ذلك المـاء الجاري ونابتة الماء هما سبب الحضـارة العراقية الاولى والاخيرة ، وكل حضـارة في العراق ابتدأت ببداوة ، تأتي خشنة فتنعم ، ثم تنغمس في بلهنية العيش حتى تترهل ، وتغشاها موجة جديدة من البداوة أصلح للحياة وتكاليف الحياة على مثل هذا دار الفلك دوراته العديدة .

من أول الدهر والعراق مهبط البشر وميدان عامر لسباق الامم وذلك لما فيه من خير وطيبة ، سهل غني بما يتخلله من مجاري الفراتين وروافدهما ، لقد كشف التاريخ باخباره واثاره ان الزحام في الحقب الاولى كان على سقي الفراتين وسقي النيل ، ولم ينته البحث عن ان الحياة ولوازم الحياة من حضارة وعماره ظهرت أولا فى العراق أم فى مصر ، وعلى أي حال لقد كانت فى العراق حضارات لامم شتى الا ان وضعة العمران فيه كانت مثل وضعة أهل ذلك العمران سياله متنقله ، فانى لا أعرف مدينة أو قرية عراقية الا وقد نهضت على انقاض عماره سبقتها ، كما وان السكان كانوا يتنقلون فى ارجائه ، ولعل ذلك ناشىء من عدم ضبط شؤن الفراتين التى كانت تعور من الفيضانات العالية ، ومن الطمي الذي تحمله فتكون أسباب للجزر والمد واحياء أرض وموات اخرى ، ولست هنا في صدد البحث عن سائر العمارات العراقية انما أريد البحث عن مهابط العرب الى العراق ، متطرقا لامهات المدن العربية فيه • (الحيرة) (البصرة) (الكوفة) (واسط) كما اني أذكر ما يلم بهذه الامهات من المهابط الممتدة من بادية السماوة الى بادية البصرة ومن اعالي الفرات وطفوف الجزيرة الى بادية الحيرة ، ولا تدخل فى بحثي هذا مهابطهم فى الناحية المعروفة بـ (ديار بكر) مهابط وائل ولاحيث هبطت مضر ونزلت ناحية (الرقه) (وسروج) وغيرها من النواحى المعروفة بـ (ديار مضر) ولاحيث هبطت ربيعة ما بين الموصل وماردين وغيرهما من تلك النواحي

بـ (ديار ربيعة) لان هذه الارجاء لا تتصل رأسا بالام وهي جزيرة العرب •

لقـد كان الطنب العربي ماداً رواقه على طول الجـانب الغربي للخليج وعلى طرفي الجنوب والشرق لجزيرة العرب من اعالي الفرات حتى مواقع قارون والبصرة •

فأنت ترى البـاحثين ينوهون بالاثار العربيـة في بادية البحرين ومقبرتها التاريخية ، كما ويذكرون عن وجود بني عبد القيس الذين كانت رباعهم منتشرة من الجزيرة حتى بادية السماوة ، وذي‌قار ، ومن العرب هناك اياد اللذين كان لهم بيت شهير يقصده العرب يسمى (كعبه اياد) ، ومن العرب هناك الازد ومازن ابن الازد المنتشرون في الجانب الغربي من الخليج العربي وكان لهم أسـطول مرهوب يحمي مملـكتهم الممتدة من حوالي (كراشي) (الى المشان) الموضع المعروف قرب البصـرة ، وبقـايا الازد اليـوم منتشـرون في مسقط وعمان ، ومن العرب هناك العتوب (بنو عتبه) ومنهم شيوخ البحرين آل خليفه بنو عمومة آل صباح واقرباء آل سعود ، ومن العرب هنـاك تميم ومنهم شـيوخ قطر آل ثاني ، ومن العرب هناك كعب ومنهم شيوخ قارون والاهواز •

« المهابط العربية الى العراق »

مر عليـك ان الخيمة العربيـة كانت من القـديم قباب الجانب الغربي للخليج وجانبي شـط العرب ، لقـد كانت ململمـة اناخت في بادية البحـرين وهبط منهـا الى العـراق

(بنو شيبان) و (سنبس (اللذين يقال لهم اليوم (الدبات) و (جنانه) أي كنانه (وعبس) واليوم يقال لهم (آل عبس) وكثير غير هؤلاء ، ومن هنا تعرف ان أهم المصادر لعرب جنوب العراق هي بادية البحرين ، واستيفاء للبحث عن الجنوب وعن بادية البحرين لابد وان نذكر شيئاً عما جد لشط العرب والكويت والبحرين والاحساء وقطر حتى نخط بذلك صفحة تاريخ جديد للعرب وما تم لهم من انقلاب وتطور .

سبق ودفع جفاف الجزيرة بالعربي الظامي من ظهر الجمل الى ظهر الموج ، فانتشر طنبه كما ذكرنا واعتاش على صيد البحر متنقلا من حياة قاسية الى حياة قاسية ، لقد اندفع من شظف العيش الى الخطيب من بلاد سورية والعراق والى غير الخصيب من سواحل الخليج في الكويت والبحرين وعمان وقطر والاحساء ، ولم يكن الخبز والماء موفورين له في الجزيرة فكان من الصعب الاستمرار على تلك الحياة وانتفض هاربا الى الساحل ، ولكنه فر من بخيل الى بخيل . لقد كان الجانب العربي للخليج يستقبل الموجات البشرية من سومريين وفينيقيين وفرس وعرب فتجددت هناك شعوب ودثرت شعوب كانت ذات حضارات ودول وفلسفات واديان ومذاهب ، ان هذا اللسان المائي الذي يسمونه (شط العرب) كان يمد الشاطيء العربي فمن القديم والفائض من مياه الفراتين وقارون يغسل اقدام الشاطيء العربي ذلك الشاطيء الذى كان غاية فى البؤس والجدب ، ان العربي الصبور الذى حشر بين البحر المالح

والبر القاحل تمسك بذلك الشاطيء وتشبث متحملا كلما فيه من غضاضه ومراره ، وما تدري لعله كان حالما بما تمخضت به بطون الصحاري وما وضعته من الكنوز الضخمة ، وعلى كل حال فلم يكن العربي الاول مخيرا بالاقامة على ذلك الساحل الاجرد ولكنه صبر فظفر .

سلسلة من الامارات والمشيخات العربية القت بنفسها في البحر بعدما زهقت من تلك الجزيرة الماحلة القاحلة فما بين البصرة والفاو (٣٠٠٠٠٠ نسمة و ٢٠٠٠٠٠) نسمة في الكويت (١٥٠٠٠٠ في البحرين و٤٠٠٠٠ في قطر و ١٥٠٠٠٠ في الاحساء و ١٠٠٠٠٠ في مسقط وعمان) ، كما جاء في تاريخ قطر صفحة ١٩ واليك بعض العناصر المهمة في تحضير هذه العشائر البدوية .

(١) الرسالة الاسلامية فان تفهم البدوي لها وايمانه بها حقق معجزة لم يأت بها كل العاملين على تحضير البدو لقد كانت الرسالة المخفر الاول لتحضير ذلك البدوي وجعله يعتنق النظام والشرع ، انه اكبر عمل قومي حققه زعيم العرب وسيدهم .

(١) العرف العشائري فان في الالتزام به حركة ذهنية خفية تسهل الانتقال الى النظام التشريعي الذي يكثر في الحواضر .

(٣) ان اعتياد البدوي على المرونة والنشاط والقوة يجعله أقرب الى التحول من حالة ضيقة الى حالة أوسع ومن نفس مضطربة الى نفس مطمئنة .

وابتداء من أيار ١٩٠٨ لاحت بشائر الثراء فى تلك الارجاء العربية مبتدئة بسباخ الاهواز فى المكان المعروف بـ (مسجد سليمان) ثم تتابعت الخيرات وانتشرت فى الكويت والاحساء والبحرين وقطر والبصرة وأبو ظبي ، ومنذ مرور أربعين عاما على انبثاق الذهب الاسود السيال فى الاهواز نبطت آبار الكويت والاحساء والبحرين وقطر والبصرة وأبو ظبي ، وعرف الناس بأن آبار هذه الارجاء اغنى آبار للنفط فى العالم حتى ان البعض شبه أرضها بالاسفنجة المتشبعة بالنفط ، ففي طبقات تلك الارض الكلسية بين الرمال والصخور والجبال الجرداء ، والسهول القاحلة ذات السباخ والاملاح كان دم الحياة يتسرب ، وقد تعددت شرايينه من آبار (غاش ساران) و (حاقة كل) و (مسجد سليمان) و (لالي) فى الاهواز ، ومن آبار الزبير والرميله فى ضواحي البصرة ، ومن آبار (الاحمدي) و (البرقان) و(مقوع) والردحتين وبحره وصبرية) فى الكويت ، ومن آبار (الصفانية وأبو حدريه وقطيف والدمام والبئق والعظمه وغوار وعين دار وشدقوم وعثمانية وحرد) فى السعودية ، ومن آبار (وفره) فى المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية، ومن آبار (العوالي) فى البحرين ، ومن آبار (الدخان) فى قطر ، ومن آبار (شعيف) فى ابي ظبي ، من كل هذه الابار وغيرها التى سوف تستنبط تتكون تلك الاسفنجة المشبعة بالنفط .

بديع ذلك المنظر الذى تراه فى حلك الليل ، انك ترى النور الاحمر الوهاج يتصاعد مما يشبه المشاعل وما هي الا افواه الابار النفطية المنتشرة هنا وهناك وقد وصفه أحد الكتاب وما ابدع ذلك الوصف حيث يقول (أنه مارد يعب من النفط بكل شراهة ونهمه وقد انتصب قائما بين الرمال والصخر على قدمين من طين) .

انقلابان عظيمان مدا على البلاد العربية جناحي نهضه لم يشهد التاريخ مثيلا لهما ، الاول الانقلاب الاسلامي فى مطلع التاريخ الهجري ، وما انتج ذلك الانقلاب من رفع معنويات العرب وتوافر امكانياتهم ورقي افكارهم وسمو نفسياتهم العامرة بالمبادىء الخيرة والاهداف النبيلة ومكارم الاخلاق ومن سعة رقعة الملك ، ذلك الانقلاب الذى اخرج خير امه طافت فى مشاعل النور واستنبطت للحياة ينابيع صفت مشاربها وراق طعمها ، وزينت الدنيا بالانسان الكامل الذى أكد على ذاته بالامجاد والمفاخر .

وثانيهما الانقلاب النفطي فى مطلع القرن العشرين للميلاد ، وما حصل فيه من فوران الذهب الاسود الذى فجرته ينابيع خانقين وآبار شمال العراق وجنوبه وسباخ الاهواز والكويت والاحساء والبحرين وقطر وأبو ظبي وليبيا والصحراء الكبرى ، ومن يعلم بما يكمن في البلاد العربية من هذه الخيرات المطمورة ، ذلك الانقلاب الذي يقذف فى كل عام بالدخل القومي الضخم البالغ مئات بل الالوف الملايين من الجنيهات في ذلك القفر اليابس العابس والدو الموحش ، لقد أصبحت

تلك الجزيرة القليلة الامطار وذلك المناخ الجاف المجدب وحواشي تلك الصحاري ذات النفود الصغرى بين الاحساء ونجد والنفود الكبرى بين نجد وبادية العراق والشام وكلما هناك من اكام وكثبان وعقبات ملىء بالرضم البركانية ، أصبحت كما ستعرف لامعة زاهية بانواع الترف والبذخ في تخمة من الثراء ومن البطر ولكن ذلك الانقلاب البترولي .

قسم بين الورى معيشتهم قسمة سكران بين الغلط

فلم يكن مثل الانقلاب الاول شاملا وموزعا نوره وعافيته بالسوية بين الجميع ، بل كان مختصا بحفنة من الناس الكثير منهم جاهل اناني بطر مسرف أما العديد الاكبر والاكثر فما زال مملقاً طاوي الحشى تعلوه غبرة الفقر ويفتك فيه المرض والجهل والامية ، ففي الانقلاب الاول كان للناس جمعاء النمو والعافية للروح والعقل والقلب ، على حين ان الانقلاب الثاني لم يأت الا بالتخمة ونمو الثروة لبعض دون بعض واذا أوجد حركة اقتصادية فضعيفة وضعيفة جدا تشعرك بالطبقية أكثر من الشمول .

واني اكاد ان أكون مخضرما ، لقد توسطت جيلين وشهدت عهدين لا يلتقي أحدهما مع الاخر ولكني التقيت مع هذا وذاك وأدركت وداع أحدهما واستقبلت الاخر ، لقد تتلمذت على منبر ذاك وتوسطت حلقة هذا ، واغرب ما ادهشني وحدة الجوهر واختلاف الاسلوب ان الضجة التي سمعها المعري في اللاذقية ، وان الاصوات التي كانت مرتفعة في ادروقة البصرة

والكوفة وبغداد ودمشق والقاهرة وغرناطة واشبيلية ، وما كان يتصاعد من ابواق دراويش المتصوفة ومن قعقعة السيوف الخشبية التى يتكيء عليها خطباء الجمعة ، كلها تطلب البلسم للجرح وتريد العلاج لهذه الدنيا المريضة ولكن كلما جاءت به مسكن لا العلاج الشافي ، وكذلك دعاوة اليوم وما تقوم به هذه الاكوام من المؤلفات والمحاضرات والمجلات والجرائد ومكاتب السياسيين ومنابر البرلمانات وصفوف الجامعات وانباء المراسلين وكلما سجلته الاقلام ورتبته حروف المطابع تلك الاقلام وتلك المطابع التى تكتب وتطبع بحبر رماد الحق ، فقد قيل ان الباطل احرق الحق وجاء البشر أو شياطين البشر فلم يجدوا الا رماد الحق وسرعان ما جعلوه مادة حبر لما يكتبون وما يطبعون ، والدنيا فى يومها وامسها برغم الانقلاب الاول والثانى اساليب تتبدل وظواهر تتطور ولكن كلما جاءت به علاج مسكن وليس بالشافي ، انك اذا تقصيت وفحصت بعمق لم تجد فى الرؤس شيئا ، وهذا الانسان فى قديمه وحديثه لم تنفعه تفاحة آدم ولا صمونة ملتوف بل هذى وتلك طردته من الجنة وابعدته عن النعيم واليك صفحة لتاريخ العرب الجديد .

« شط العرب »

هذا الاسم يفسر نفسه أنه عنوان نهر عربي وكل البقاع التى حوله عربية فا « السيبه وعبادان والمحمره وحويزة بني أسد والدير والقبان والدورق والبصرة » كلها منطقة عربية

باللغة والمتحد المحتد والعادات والتقاليد والدين والملامح والهندام والشعار والنعار وأسلوب الحياة ، وحتى الطبيعيات هناك متجانسة كالثروة النباتية والحيوانية والبترولية فلهذه المنطقة وحدة اقتصادية وتاريخية وجغرافية ، ويظهر ان السبب فى تسمية هذا اللسان المائي بشط العرب هو ان ضفافه وفراضه كانت مهبطا للعرب سواء من البادية العراقية أو من البحرين أو من كاظمه وظمنها « الكويت » وما عبادان التى قيل فى حقها ما وراء عبادان قرية الا قرية من قوى الاهواز ، وكل الاهواز عربية تحدها من البلاد الايرانية « تستر » وقد كان الفرس يسمونها عربستان أي بلاد العرب ، وما انفصلت عن العراق الا في عام ١٨٢١ ميلادي كما سيأتي ذكره ، ان القدم العربي ثابت فى تلك الجهات من الزمن العتيد ، فمن قبل التاريخ الاسلامي كانت مملكة الازد ومازن تمتد من اعلا مسقط حتى (المشان) الموضع المعروف حول البصرة منتشرة في الطول والعرض ، وكانت عذبات سعف النخل تغطي تلك الارجاء واحة واحة وجوها عبق بروائح الطلع المنتشر وكثيرا ما زينت افاقها قلائد الحباة الذهبية من البسر والرطب ، وهذه آبار البترول تفور ويتصاعد لهبها الياقوتي من هنا وهنالك ، وكانت الامارات العربية منتشرة فى الاهواز وسقي قارون طورا امارة لبني أسد وطورا امارة للسادة الموالي وقاعدتها الحويزة وتارة امارة لكعب الممتدة على طول سقي قارون وقاعدتها القبان أو المحمره ، وكانت هذه الجهات كجزء من العراق الى معاهدة « أرض روم » عام ١٨٢١ المنعقدة بين

العثمانيين والايرانيين والتى بموجبها تنازلت ايران عن منطقة السليمانية في شمال العراق لحاجة العثمانيين الى تلك الهضبات ذات الموقع العسكري وقبالة ذلك تنازل العثمانيون الى ايران عن الاهواز فى جنوب العراق ولم يمس هذا التنازل شط العرب(١) كما ولم يكن لذلك التنازل محل الا على الورق حيث بقيت تلك الامارة عربية لا تقر بشيء مما وقع . كما جاء في كتاب الخليج العربي صفحة ٩٦ .

ان هذه القناة يبلغ طولها اليوم ١٥٠ كيلومترا ويصل عمقها الى ٣٥ قدما ولكنه مما يلي الميناء لا يزيد على ٢٩ قدما وعرضها يختلف فاوسع ما يكون ثلاثة الاف مترا(٢) وقديما كانت وضعة الماء المتجمع حول البصرة من فيض الفرات ودجلة العوراء وضعة بطايح تتوسطها جزر وكانت البصرة ضمن منطقة دجلة العوراء ، وفى غضون القرون الاربعة الاولى للهجرة أوجد الجري واديا حول البصرة تتدافع فيه أمواج الرافدين وفيضها ، وفى القرن الخامس للهجرة ظهرت له متون فسمي ذلك الوادي شط العرب ، وقد كان مبدئه عند حدود البصرة وبعد هذا أمتدت المتون فكان مبدأ شط العرب من المكان المعروف بـ « المطاره » ثم « العليه » نسبة لعلي افرسياب لانه اتخذه حصنا ثم القرنه

(١) كما جاء فى محاضرات الدكتور محمود علي الداودي صفحة ٦٣ .

(٢) محاضرات الدكتور محمود علي الداودي صفحة ٦٣

حيث يتعانق الفراتان منحدرين الى مصب قارون فيتكون من الجميع مد واحد ينحدر الى الخليج ، وأول ذكر لشط العرب كان في عام ٤٤٣ للهجرة حيث ذكره الرحالة ناصر خسرو وبعد القرن الخامس كثر ذكره فقد ذكره الغياث البغدادي وخورشيد باشا في سياحة نامه ** ودرويش باشا في تقريره عن الحدود وغير هؤلاء ، وفي كل أربعة وعشرون ساعة تكون في الشط حركة مد وجزر ويصل المد الى بلد ميسان من جهة دجلة ويسمى اليوم بالعزير لان العزير مدفون في ميسان ، أما من جهة الفرات فيصل الى مدينة بني منصور ، ان هذا اللسان الزاهي المتكون من الانهر الثلاثة هو المنفذ الوحيد للعراق نحو جنوب شرقي آسيا من بلاد الهند والصين وبلاد الغرب فهو باب الخير واحيانا باب الشر ، ومن شط العرب من الجهة الشرقية الى ميناء عباس الصفوي المعروف بـ « بندر عباس » ينبسط لعينيك شاطيء موحش تنتشر فيه المستنقعات ، وفي الجهة المقابلة له التي تصاقب جزيرة العرب تنتشر الامارات والمشيخات العربية ، وسنة بعد سنة يزداد امتداد شط العرب بما تحمله رواسب ، الانهر الثلاثة الى مصبه وتقدر مسافة الامتداد بخمسة وعشرين مترا في السنة ، وقد ذكروا ان المياه انحسرت عما يقرب من مائتين كيلومترا خلال خمسة الاف سنة ، وقد شبه البعض شط العرب ببهو الخليج لما يجتمع فيه من انواع البشر ، ومن القديم كان سهل قارون تابعا لمنطقة ما بين النهرين وكان يشكل وحدة جغرافية واقتصادية مع سقي دجلة والفرات ،

وقد خضعت تلك البقعة للادارة العربية من عهد الدولة الاموية وفيها اقاموا المعسكر بين العراق وايران ، ومن ذلك العهد امتد سلطان العرب فى الاهواز وامتد طنبهم ، وفى أوائل القرن العشرين كانت تلك الجهات بما فيها عبادان خاضعة للشيخ العربي المعروف بالشيخ خزعل بن مرداو وآل مرداو استلموا السلطة من الشيخ سلمان الكعبي الذى كانت له على سقي قارون تلك السلطة التى استلمتها كعب من الموالي الذين استلموها من بني أسد ، ومع الشيخ خزعل عقد الانكليز معاهدة تتيح لهم استخدام جزيرة عبادان فى شط العرب لبناء مصفات بترولية تمد اليها الانابيب من بترول الاهواز ، واستمرت الشركة فى التعامل مع الشيخ برغم وجود حكومة ايران ، ويظهر من الوثائق ان الاهواز وكل سقي قارون كانت امارة عربية مستقلة تماما ومركز العرب فيها يتصل بالزمن السحيق وان المولى منصور الذى كان له حلف مع البرتغاليين كان يقاوم بكل قواه تدخل الشاه عباس الصفوي فى شؤون امارته ، وقد ظهرت قبائل كعب العربية هناك فى أوائل القرن العاشر للهجرة وذلك عندما هاجرت من العراق الى الاهواز وتمركزت فى القبان ، وحافظت كعب على الاتصال مع البصرة ووسع الشيخ سلمان منطقة نفوذه الى الجنوب من تستر ولم تثمر متاعب الشاه كريم الزند وحروبه عام ١٧٥٧ التى كانت ترمي لضم الاهواز وسقي قارون الى السيادة الفارسية ، وكم حاول الاتراك والفرس

والانكليز اضعاف قبائل كعب فلم يفلحوا واخيرا اعترف الاتراك والفرس بالسيادة العربية على شط العرب وذلك عندما عقدوا معاهدة الحدود عام ١٨٢١ حيث تركت منطقة شط العرب ضمن العراق العربي ، ونشطت حركة الاستقلال في الاهواز فى عهد امارة بني مرداو الشيخ جابر والشيخ مزعل والشيخ خزعل ، وكل منهم رفض العروض الاقتصادية البريطانية المتعلقة بفتح نهر قارون للملاحة البريطانية ووقف فى وجه الشركات الاجنبية حفظا لاستقلال قارون • وبعد زوال التنافس بين الالمان والفرنسيين والامريكان انفرد النفوذ البريطاني فى هذه الانحاء عقب الحرب العامة الاولى ، وتهادن الانتداب البريطاني ومن يسير فى ركابه من الطبقة الحاكمة فى العراق مع ايران ، وبرغم تلك المهادنه اندفعت السلطات الايرانية للمطالبة بالاشتراك فى ملكية شط العرب واصرت على جعل شط العرب بأكمله مشتركا الامر الذي يتنافى مع القانون الدولى الذى يعطي الدولة الواقعة فى اراضيها مصبات الانهار الافضلية فى استعمال المياه وتوزيعها ولشدة الاصرار يضطر العراق الى رفع القضية الى مجلس عصبة الامم وذلك فى تشرين الثاني ١٩٣٤ ولكن المجلس أوصى بحل الخلاف عن طريق المفاوضات التى باءت بالفشل لتعنت الايرانيين وعنادهم ، وبعد ذلك انتهزت ايران ضعف الادارة السياسية فى العراق على أثر انقلاب بكر صدقي وانشغال البلاد بمشاكلها الداخلية فاصرت الحكومة الايرانية على حق الملكية المشتركة في شط العرب واضطر العراق الى

منحها حق الاشتراك مناصفة فى ملاحة شط العرب بمسافة أربعة اميال أمام عبادان ، ولكن الحكومة الايرانية لم تلتزم باتفاقية الصيانة والملاحة وخالفت فى الرقابة الصحية واحتكرت عوائد المرور ، ومن هنا نعود الى صلب الموضوع والبحث الاساسى .

جاء العهد البترولي فاكد الوحدة الطبيعية بين ضفتي شط العرب وكشف ان الضفتين مثقلة بكنوز الذهب الاسود الذي قلب الوضع في هذه الارجاء وجاء بصفحات التاريخ الجديد ، فعلى الجانبين تفور الكنوز وان النفوس هنا وهناك مملوءة بالامال التى تتطلع الى الجديد المفيد .

« الكويت »

كلمة غير عربية الا ان تصغيرها عربي فهي تصغير لفظة كوت الاعجمية ومعناها المخزن أو الحصن الصغير ، وتأسيس الكويت يكاد يكون عراقيا ، فقد جاء فى صفحة ٦٠ من كتاب مختصر تاريخ الكويت ان البانى له هو زعيم بني خالد بناه عام ١٠٨٠ للهجرة وبنوا خالد هم العشيرة التى كان نفوذها يمتد من السماوة فى العراق الى الاحساء والكويت انتهى ما جاء فى كتاب المختصر ، وجاء فيه ان ذلك الزعيم بناه مسلحه يحرسها اتباعه ، وبنو خالد هؤلاء ذكرهم القلقشندي بانهم بطن من عامر بن صعصعه من العدنانية ، وجاء في تاريخ قطر أنه لما اتسع نفوذ محمد بن سعود الاول

سمل بعضا من جنوب العراق والاحساء وادخل بني خالد في طاعته وقد كانوا من الذين ناهضوه ، وقبل ظهور آل سعود كانت الزعامة هناك للشيخ « ابن عريعر » وهو زعيم بني خالد .

وجاء في مختصر تاريخ الكويت صفحة ١٧ ان اسم الكويت لم يكن شاملا لجميع الاراضي والمناطق الحالية بل يطلق على محل معين هو اسم المدينة فقط وما عتم الكويت ان أصبح مرفأ ممتازا تنازعته الدول من قبل انبثاق النفط فيه.

« الكويت القديم »

بليدة ضمن موضع « كاظمه » الشهيرة المتصلة ببادية البصرة ، وكانت الكويت منسية ومعدومة الاهمية لا ميزة لها عدا انها المرفأ الطبيعي للصحراء على خليج البصرة لم تمنحها الطبيعة من هباتها شيئا محسوسا في الظاهر ولكنها كانت كما ستعرف ظهرا فقيرا وجوفا ثريا ، وفي موجة من موجات الجزيرة العربية ازعجت الصحراء فريقا من ابنائها فالتجوء الى سيف البحر هابطين الى ساحل الخليج العربي وهم مجموعة من العتوب بني عتبه الذين ينحدرون بانسابهم الى عنيزه من بكر بن وائل الاب الذي تنتسب اليه البيوت الثلاثة آل السعود وآل خليفه وآل صباح ، فآل صباح الذين هبطوا الى هناك عام ١١٣٠ للهجرة كانوا ابناء عم آل خليفه واقرباء آل سعود ويظهر ان هؤلاء الاعمام والاقارب كانوا على موعد

من الثروة والسلطان الذي وافاهم من (الدمام) ومن (الاحمدي) ومن (العوالي) .

لقد ازعجت الصحراء هذا الفريق فالتجوء الى الشاطيء على انهم لم يتخلصوا من الرمال الساقية والقيظ المحرق ولكنهم صمدوا وتمسكوا بصبر وجهد وداوموا متماسكين حتى عوضتهم العناية بتلك الثروة الفائضة ، وكانوا قبل ذلك التعويض مولين وجوههم شطر البحر ، فكان الكويتيون من اجرأ الغواصين وامهر الغطاسين واشجع البحارة ، وكان من بينهم جبر بن رحمه ذلك الشجاع الذى دوخ الخليج وامراء الخليج ، وقد كان الكويتيون(١) يؤون الى بيوت من الطين تشبه الجآجيء . نشأت منها بعض القرى الفقيرة التى كانت تضم اناسا بدائيين ، يتردد عليهم البدو ومعهم الخيمة والجمل ، وكل الخير عندهم ان تمن الطبيعة على الجزيرة بزخة من المطر توشح البادية بحلة خضراء ، فيهرعون عائدين الى الصحراء الام ، وترى فى تلك البلدة الى جانب الخيام اكواخا من صفيح التنك الصدي أو من سعف النخل اليابس قامت على شاطيء ردي وبي ومناخ رطب محموم وجو ملوث وهبوب لزج ، هكذا كانت الكويت الفقيرة بلد الرمال والسباخ ، وفى الثلث الاول للقرن الثانى عشر للهجرة كثر الهابطون على الكويت ولاجل ترتيب شؤونهم اختاروا شيخا لهم حسب نظام البداوة ووقع اختيارهم على الشيخ صباح بن جابر الذي سميت به العائلة(٢) .

(١) مختصر تاريخ الكويت صفحة ٦١ .
(٢) مختصر تاريخ الكويت صفحة ٦١ .

لقد كان القرن التاسع عشر للميلاد من اسوأ الازمنة في حياة الحكومة العثمانية السياسية في العراق واطراف العراق جنوبا وشمالا ولم يستقر الوضع الا في عهد مدحت باشا الذى اعتبر الكويت عثمانيا تابعا للعراق ، وان الحملة التى وجهها الى الاحساء وقطر كانت مؤلفة من الجندي العثماني ومن قبائل المنتفك تحت قيادة ناصر السعدون ومن عرب الكويت الململمه بزعامة مبارك الصباح ، وبعد انتهاء تلك الحملة قدر مدحت باشا موقف الشيخ ناصر السعدون فعينه واليا على البصرة ، وقدر موقف الشيخ مبارك فنصبه قائمقاما على قبائل الكويت ، واستمرت الحكومة التركية على تسليح شط العرب وهي تؤكد المرة تلو المرة سيادتها على الكويت ولحوقها بالبصرة رأسا ، ولم تكن الكويت بصرية حسب التقسيم الاداري فقط بل بصرية في شؤون عديدة ، انها بصرية في حرب عبدالكريم الزند ، بصرية في وضع النظاره لموسم التمور البصرية ، وبصرية في تملك المزارع والبساتين من أراضى البصرة يوم كان القانون العثماني يحجب تلك الملكية عن غير العراقي ، وبصرية في كل الحوادث التى سبقت الحرب العامة الاولى ، ولا حدود بين البصرة والكويت ففي عام ١٩٢٢ كان من المستحيل تحديد ما بين العراق والكويت في الاجتماع المنعقد في العقير برغم كل المحاولات ، وفي الحقبة التى كانت بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت أزمات عصيبة بين العثمانيين

والايرانيين والسعوديين وسفراء الانكليز فى الخليج • ولما اراد العثمانيون تسليح شط العرب قامت ضجة بينهم وبين الايرانيين ومن طرف خفي بينهم وبين الانكليز فكتبت جريدة البصرة التى كانت ذات صفحتين عربية وتركية كتبت فى عددها المؤرخ ١٧ كانون الاول ١٨٩٣ ذاكرة وجوب مضاعفة الاستحكامات على شط العرب والفاو لاجل المحافظة على الكويت والبصرة ، وفى أيلول ١٩٠١ بعثت لندن الى سفيرها فى الاستانه برقية سرية جاء فيها ان قضية الكويت تحتاج الى حذر وحيطه لان الاتفاقية البريطانية يشجبها انها وقعت وراء ظهر السلطان(١) وهكذا تناقضت مواقف الانكليز تجاه الكويت ففي عام ١٨٩٩ يعقدون اتفاقية مع موظف غير مخول وهو الشيخ مبارك وفى عام ١٩١٣ يعقدون اتفاقية مع حكومة الاتحاديين الاتراك تنقض اتفاقية ١٨٩٩ حيث يعترفون هنا بعثمانية الكويت وتابعيتها للبصرة ، وفى الحركة التى يتوجه لها القائد العثماني فى بغداد بصورة سرية ومعه متصرف البصرة الاميرال رضا باشا • قامت الضجة بين العثمانيين والايرانيين بسبب اقامة الاستحكامات على الفاو محافظة على شط العرب والكويت ولم يكن أي ذكر لشيخ الكويت الذى كان عثمانيا • وسبق فى عام ١٩٠١ ان نشط(٢) محسن باشا والي البصرة ومعه القائد العام للقوات التركية فى العراق

(١) ذكر ذلك بيريني فى كتابه الخليج العربي •
(٢) محاضرات الدكتور محمود علي الداودي الصفحة ١٣٣ •

قاسم باشا تخلصا من دهاء مبارك الصباح ، وقد وقفت تلك الحملة التركية على مقربة من مدينة الكويت برا أما فى البحر فيقف الطراد العثماني (زحاف) فى مياه الكويت وتظاهر محسن باشا وقاسم بزيارة للشيخ مبارك الذى ادرك بفطنته ما يراد به فخضع للوالي وللقائد بالطاعة ورافقهما الى الفاو وأعلن تابعيته للسلطان ، غريب أمر الشيخ مبارك لقد كان الحول القلب وكان مغرما بحب السلطة على الكويت وتركيز تلك السلطة التى لاجلها يقتل أخويه كما ستعرف ولاجلها يتصل بالحكومة الهندية التى تتصل بالحكومة الانكليزية فى لندن وهذه تتصل بالحكومة التركية فى الاستانة وتكثر المراجعات السرية السياسية والمناورات العسكرية وتتضارب الافكار ، وأخيرا تخضع الحكومة البريطانية للواقع وتعترف بعثمانية الكويت وأنه تابع للواء البصرة ، وفى سنة ١٩٠٤ كما جاء فى كتاب الخليج العربي لجان جاك بدأت البعثات الانكليزية لدراسة المناطق العشائرية هناك وتقديم التقارير عن الجهره وصفوان وأم قصر وفي سنة ١٩١٣ يعقد الانكليز اتفاقية يعترفون بها بعثمانية الكويت وقبلا كانت بريطانيا تمشى بأمر الكويت على اطراف اصابع اقدامها حذرا وحيطة ، اذ لا يسوغ لها ان يرتفع الصوت ، وكان العثمانيون لا يرون ذلك الاختيار لصباح بن جابر بادارة شؤون تلك المملمة التى كانت هابطه الى موضع الكويت ما يجعل لتلك العائلة السلطة الزمنية ، ويرون ان علاقة الكويت بالعراق أقوى

وأشد اواصرا من علاقة المحمره بايران وفى كل منهما ادارة عشائرية ومشيخة متنفذه وفى كل منهما مراسيم ارتباط هذه بالعراق وتلك بطهران والشيخ فى هذه وفى تلك قد عقد اتفاقية مع الانكليز ، على ان شيخ المحمره أولى بالادعاء لان شيخ المحمره هو ابن مرداو الشيخ الاعلى لكعب وغيرهم من عشائر الاهواز ذات السلطة الزمنية على تلك الاقطار حتى وقبل ان تهاجر كعب من البصرة الى الاهواز فى زمن الشيخ سليمان .

« الكويت الحديث »

ان الكويت الحديثة التى كانت تضمها الكويت القديمة كما يضم الفحم الماس تقدمت وتدرجت فى الانتعاش ، وأول انتعاش لها جاء من البصرة وذلك عند مهاجمة الفرس الزندية مدينة البصرة فى القرن الحادي عشر للهجرة ويلتجأ تجار البصرة الى الكويت بثرواتهم وتجارتهم وبهذه الهجرة احتكرت الكويت تجارة الخليج ، وتمكث المهاجرون سنوات عديدة وبهم ظهرت أهمية هذا المرفأ ، أما الانتعاشة الثانية فقد كانت أضخم الا وهي الثروة النفطية التى بشرت طلايعها فى النصف الاول من القرن العشرين ، وتقدمت الدول الكبرى تخطب ود الكويت متصلين بالشيخ السابع وهو الشيخ مبارك الذى يعتبر المؤسس الثاني لمشيخة آل صباح .

ان مساحة الكويت اليوم خمسة عشر ميلا مربعا مثقلة بالعمارات الشامخة قصور قوراء ومخازن كبيرة ومستودعات وأرصفة ، وتشتمل الكويت اليوم على ستة احياء وهذه الاحياء على ثلاثة مدن وهى (الكويت) (الاحمدية) (الجهره) وعلى عدة قرى وعلى عشرة من الجزر الصغيرة والكبيرة ، ويبلغ عدد الابار المنتجة للنفط هنا ثلاثماية وتسعة عشر بئرا اعتبارا من أول يوم تدفقت فيه البئر الاولى بما فيها آبار منطقة الحياد ، وقد تأسست الكويت الحديثة عام ١٧٥٦ وفى عام ١٨٨٥ تقدم الباب العالي وضمها الى العراق رسميا ، وبعد امد تطلعت برلين راغبة فى جعلها نهاية للخط الحديدى الذى كان معروفا بذى الباآت الثلاث برلين بغداد بصرة ، وكما رغبت بطرس بورغ فى جعلها نهاية الخط الحديدي الذي تحاول مده عبر ايران للوصول الى الخليج ، وكثرت زيارة الفرنسيين رغبة فى التسلل الى تلك الانحاء ، ولكن عصا السحر الانكليزية ضربت ذلك البحر فابطلت كل محاولة ولم يكن هناك نفوذ فوق نفوذها لانها تعتبر تلك الانحاء بوابة الهند ، وعلى هذا تقدمت واضعة للكويت تحت سراجها ، وسرا عقدت اتفاقية عام ١٨٩٩ بينها وبين شيخ الكويت • وبين عشية وضحاها اصبحت امكانية الكويت لا حد لها وصار التقدم الاقتصادى فى الكويت لا يجاريه أي تقدم فى العالم فورانا ان الفورة صعدت باتاج البترول فى غضون ثلاثة عشر عاما ٩٠ ضعفا من بداية انتاجه ، ففى عام ١٩٤٦ كانت الشحنة الاولى ثمانية الاف طن وكانت عائدات الكويت

منها ثمانمـاية الف دولارا ، وفى عام ١٩٥٦بلغت الشـحنة خمسة وخمسين مليون طنا عائدات الكويت منها ثلاثماية مليون دولارا ، وفى عام ١٩٥٨ بلغت الشحنة خمسة وسبعين مليونا من الاطنان ومن المنتظر ان تبلغ ١٧٥ مليونا ، وقـد اظهر وفرة المخزون من البترول وسهولة انتاجـه وتعبئته ما حدث بايران على عهد مصـدق الذى امم انتـاج عبـادان فتعوضت الشركات بنفط الـكويت عن نفط ايران ، وهكذا فى ظرف عشر سـنوات تنقلب الحيـاة فى الكويت انقلابا هائلا وتتابعت الانقلابات بسرعة فائقة ، لقد أصبحت مدينة الكويت مزودة بكل وسائل العيش الفاره ، والتسـلية والراحة فيهـا متوفرة للعمـال الذين يربوا عددهم على العشـرة الاف برغم وجود الالة الجبارة الحديثة المبثوثة هناك ، والعمال ينعمون بأجور عالية ولهم مساكن ممتازة تهيئها لهم الشركة ، وانك لتجد فى الادارة والمحاسبة والفنادق كثيرا من الفلسطينيين والعراقيين والمصـريين والسـوريين والهنـود والباكسـتانيين والفرس والافغـانيين ، أما تجارة الاسـتيراد فى الـكويت فرائجة كل الرواج لان الكويت تستورد كل شىء حتى غرام الطحين ، وترى حركة البناء والانشاء على قدم وساق ، وفى الـكويت تشريع لا يسمح لاي شركة ان تعمل في الكويت الا اذا كان أحد ابناء الـكويت شريكا فيها ، لقـد اختفت عن الانظـار الافات الثلاث المرض والجهـل والفقر ، وانشـأت المدارس الراقية ، ان احصاء نفوس الكويت ينوف قليلا على مئتين ألف

نسمة ثمانون ألف منهم ليسوا بكويتيين انما هم اغراب والكويتيون ماية وعشرون ألفا تقريبا لا يعملون ولا ينتجون لانهم فى بلاد لا تنتج غير البترول وهو صناعة غيرهم ، وقد أصبح ٩٥٪ من الذين هم فى سن الدراسة يذهبون الى المدارس الحديثة يتناولون فيها العلم والطعام والكساء والكتب والقرطاسية مجانا ، وفى الكويت مستشفيات ومستوصفات لها من العدة والتجهيزات ما لمثيلاتها فى المدن الاخرى والتطبيب فيها مجانا • واقيم فى الكويت مصنع مائي لتكرير مياه البحر يعطي الماء العذب للشرب بملايين الليترات ، وقد استعمل الغاز للمطابخ وتحزمت المساكن والمحلات باسلاك الكهرباء لشتى الاغراض ، وتوفرت المساكن الصحية اللائقة والطرق المعبدة والمزفتة والمرافيء والمطارات ، وشاع الهاتف الالي وغير الالي وكثرت المسابح والمعاهد وأصبح الشعب لا يشعر بحاجة ، ونظامه وان كان من نوع نظام الاسر والعائلات الا أنه ينسجم والعصر الجديد ومتطلبات العصر الجديد •

وقد استهوت الاجور الدسمة كثيرا من حملة الشهادات المنتسبين الى الاقطار العربية ، هذه هي مدينة الكويت الجديدة وكلما قدمنا من الثراء المفاجيء ومن تبدل الحال ينطبق على الامارتين المجاورتين للكويت وهما البحرين وقطر وقسما من المملكة العربية السعودية فجميع هذه تكاد تكون متشابهة بالنظم •

« تسلل الانكليز للكويت »

اختلف الصيد فى الخليج العربي ، فكان العرب يتصيدون اللؤلؤ والسمك ولكن جاء الانكليز بشباك صيد تصيد العرب وآبار الزيت ، وكان صيدهم للكويت على يد الشيخ مبارك الصباح والشيخ يوسف نابه آل ابراهيم ذلك البيت الكويتي المحترم ، وكان بين البيتين مصاهرة وكل من بيت آل صباح وآل ابراهيم له الجاه العريض والثروة الطائلة وقلوب الكويتيين تخفق لهذا وتخضع لذاك ، وقد كان للشيخ مبارك اخوان هما محمد وجراح وكان الشيخ محمد أحد الاخوين يرتبط بصداقة وثيقة مع الشيخ يوسف آل ابراهيم وكان الشيخ مبارك ينظر بعين خوصاء الى أخيه محمد الذى هو الشيخ السادس والذى كان يسانده أخوه جراح وكان مبارك يعمل على ازاحة أخيه محمد ولما نفدت طاقة صبره صمم على اغتيال محمد وجراح ، وبعد ذلك نودى به شيخا على الكويت وهنا يظهر نبل الشيخ يوسف آل ابراهيم وقد كان وقت ارتكاب مبارك للجريمة فى نزهة خارج الكويت ويفاجئه النبأ العظيم فيصعقه لوعة على صديقه الشيخ محمد وتعاف نفسه الكبيرة العودة الى الكويت المفجوع بوجود مبارك ، ويدفعه نبله الى المغامرة لازعاج مبارك بلطمة يثار بها وينتقم . فيصعد فى البحر الى موقع الدورة فى بر شط العرب حيث اقطاعيات نخيله وحيث املاك الكويتيين الكثيرة ، وينفذ من الدورة الى البصرة لاقامة الدعوى على مبارك

عند والي البصرة حمدي باشا طالبا معاقبة مبارك وعزله ، وهنا بدأ الصراع بين مواهب الداهيتين ولكن يوسف يظهر بالحجة فيهب لنجدته حمدي باشا والي البصرة ، أما مبارك فيستنجد بصديقه رجب باشا والي بغداد طالبا منه العون السياسي ويتصل الواليان بالعاصمة استانبول التي أخذت برأي والي بغداد وعطلت حملة حمدي باشا والي البصرة ، فلم يكن من يوسف دون ان يتجه الى الجنوب وكان العقبة في طريقه متصرف الاحساء سعيد باشا الذي استماله مبارك ، ولم يهدأ يوسف وغامر متحولا من البر الى البحر مصمما على غزو الكويت باسطول من السفن ويصل نبأ الغزو الى مبارك فيعمل على ابطال الخطة ، ويعود يوسف مستنجدا بشيخ قطر على مبارك ولكن سعيد باشا متصرف الاحساء الذى كان مغمورا بهدايا مبارك يقوم بجهود لدى الدولة العثمانية يصور فيها حركة شيخ قطر اعتداء على مبارك الخاضع المطيع للدولة . ولما سد هذا الباب في وجه يوسف عمل على تحريش الفتنة بين مبارك والامير محمد آل رشيد حاكم حائل الذى كان كارها للشيخ مبارك وقد انتقلت هذه الكراهية من الامير محمد الى خلفه عبدالعزيز . وبهذا الاوار تشب الحرب بين عبدالعزيز آل رشيد ومبارك آل صباح وكانت مملمة مبارك من عرب نجد جماعة آل سعود ، ويشتبك الطرفان في موقع (الطرفيه) من نجد وحتى اليوم تنوه اهالي تلك الانحاء بمعركة الطرفيه وينهزم فيها مبارك فتضيق الدنيا به لانه أصبح في كماشه مثلثه ، العثمانيون بسرية من الجيش يقودها كاظم باشا الذى

نهد بسريته من طريق النجف وقد شاهدت سريته وانا صبي ومن جهة ثانية ابن الرشيد وثالثة الشيخ يوسف آل ابراهيم ، نيولي وجهه شطر الانكليز ومن عادة الانكليز الصيد في الماء العكر ، وهنا تتطور القضية من مبارك والنبيل يوسف آل ابراهيم الى انكليز وعثمانيين ويعتزم العثمانيون على جعل الكويت قاعدة عسكرية فيجهز مشير بغداد قطعاته للذهاب الى الكويت ، ولكن محسن باشا والي البصرة لم يكن مصوبا لهذا العمل وبعد مداولات ومراوغات تمكن الوالي من اقناع المشير فيأمر بارجاع الحملة ، وبقي الصراع بين الانكليز والعثمانيين تارة بالسر واخرى بالعلن وأخيرا يظهر الطراد العثماني (زحاف) ويقابله طراد انكليزي وكان السيد نجب باشا نقيب البصرة والاميرال العثماني نجيب باشا يهددان الشيخ مبارك فيخرج ضابط انكليزي رأسه من طراده مهددا بالحرب وعند هذا الحد ترسب في مياه الكويت قضية النبيل يوسف وتطفح على وجه الماء القضية المعقدة وتنتقل تلك التركة الثقيلة الى الحكومة العراقية فكانت تخبو وتشب .

« الكويت والحكومة العراقية »

لقد ورث العراق قضية الكويت فما ان فرغ من مشاكله الداخلية وماجرياته الحربية في الحرب العامة الاولى الا ويلتفت الى اطرافه فيجد الانكليز قد عملوا على فك الرابطة بينه وبين الكويت وقد انزل العلم العثماني من الدوائر ومن القصر وارتفع علم أحمر كتب في وسطه « الكويت » فتأثرت

الحكومة العراقية وارتفع الصوت عاليا فى عهد الملك غازي ومن بعد الملك غازي ، وكلما ظهرت نبرة خنقها الانكليز وبقي العراق يتحفز والكويت تحت طاقية الانكليز أما الشعب فى الكويت فكان فى امس الحاجة الى جرعة من الماء العذب الذى يجدوه عند اخوانهم العراقيين اولئك الاخوان الذين بذلوه لهم لا للشرب فقط بل للزرع والضرع ، وقد فاوضت انا الشيخ فهد بذلك فرأيت ابا علي ينهزم ويراوغ .

ولما لم يكن انفصال الكويت رسميا ولكن بدس من الانكليز وتسلل ، بقيت الحكومة العراقية تريد ابطال ذلك التسلل السياسى الذى انزل العلم العثماني من الكويت فى الحرب العامة الاولى وقطع آخر علاقة مع العراق وهى علاقة البريد فى الحرب العامة الثانية ، وقد سلك العراق اكثر من طريق لشد الاواصر ومن غريب الاتفاق ان أكون انا فى زيارة فيصل الثانى فرأيته يتناول علبة كارتونية وسارقه النظر واذا به يخط اطارا ويكتب فى وسطه العراق الاردن الكويت ، فقلت فى نفسي حلم وأي حلم وقد كان ذلك قبل ان تظهر احدوثة الاتحاد الهاشمي ، ولما ولد الاتحاد بذل العراق جهودا لضم الكويت الى الاتحاد وعرض على الشيخ استعداده لحل المشاكل المزمنة ورغب الى الانكليز بالتأثير على الشيوخ ولكنهم لم يقوموا بشيء ، وكان شيخ الكويت عازفا عن هذه التشبثات وسبق لي بايعاز من حكومة المدفعي الاخيرة ، ان استطلع رأي الشيخ فى التقرب فقلت للشيخ فى أحدى الجلسات ان رغبة المخلصين تحقيق الامنية القومية ولم

الشمل فقال اسأل الله ان يرزق هؤلاء المخلصين العقل ، وفي وزارة المدفعي هذه يمر الشيخ ببغداد بطريقه الى لبنان ويخرج رئيس الوزراء وأعضـــاء وزارته الى المطـــار المدني للوداع فيقول الشيخ :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا

ويلتفت الرئيس الي قائلا أجبْ فقلت :ـ

يا نسيم الصبح من كاظمة شد ما هجت الجوى والبرحا

فيقول الشيخ ليس الكويت بكاظمـة فقلت ان كاظمـة منطقة تتصل حتى بادية البصرة مما يلي الـكويت ، ويصر الشيخ على انكاره ، واشتدت الحاجة الى الكويت فى الاوضاع الاخيرة ويلح العراق على ادخال الكويت فى الاتحاد ويمتنع الشيوخ ويساندهم الانكليز وعنـدما يشـتد الخلاف يجتمع نوري السـعيد وقد كان رئيسـا لحكومة الاتحـاد بالسـفير الانكليزي فى العراق ومعهما أحـد وزراء حكومة الاتحـاد فيصارح نوري قائلا للسـفير أنه يستطيـع ان يكون معبـود الشعب العراقي وذلك باحتلال الكويت فى ساعة واحدة وليكن بعد ذلك ما يكون ، ولكن صداقة أربعين عاما تثبطني فليحترم الانكليز هـذه الصـداقة ولا اظنهم فاعلين حتى يشـاهدوا اصدقائهم يسحبون فى الشوارع ، ولما تحجر الانكليز رفع العراق مذكرته الخطيرة طالبا أما دخول الكويت فى الاتحاد أو القيام بتحديد الكويت والعراق لا يرى حدا للكويت غير سـور المدينة واذا لم يتحقق الاول ولا الثاني فالعراق يقوم بما يلزم .

وفي جلسة لحكومة الاتحاد كانت المذاكرة على الميزانية وقد رأس نوري السعيد الجلسة ولما بلغت المذاكرة فصل المدخولات يأتي « عنوان الاعانات » فيشجب النواب العراقيون هذا الدخل ويسرع نوري بالرد عليهم قائلا أنه أمر موقت وسوف أسده من مساهمة الكويت والا فلا اتحاد ولا حكومة اتحاد • ومن أجل هذه المساهمة شدت حقائب اولئك الذين اعتزموا السفر الى لندن يوم ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ وقد سافروا بالفعل ولكن الى غير الوجهة التى كانوا يريدون ، وقد بلغني ان نوري فى وجوده الاخير فى لندن يجتمع بسلوين لوئد وزير خارجية بريطانية ويذكر له لزوم مساهمة الكويت فى الاتحاد فيقول له اخرجتمونا من العراق والان تريدون اخراجنا من الكويت ، وهكذا بقي نوري يهم بأمر الحزم لا يستطيعه حتى جاءت الجمهورية العراقية • وجاء عبدالكريم بطبله ومزماره فعملها دبكه غطت بعجاجها وعجيجها كل المساعي الحميدة التى سبقت دوره محاولا كما هو فى كل مواقفه اشغال البسطاء وقد حسب فى ترنيمته هذه اكبر شاغل غير مقدر لما اصاب العراق فى الداخل والخارج من تجميد اقتصادى ومن عزله ، وبعد انكفاء انائه جاءت ثورة الرابع عشر من رمضان فصححت الوضع استجابة للرغبة فى التمسك برابطة العروبة وشد أواصر الجوار ، وفتحت صفحة جديدة فى اعتراف الحكومة العراقية بامارة الكويت حسب نص البيان الرسمي المؤرخ فى الرابع عشر من تشرين الاول سنة ١٩٦٣ •

« الاحســاء »

في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة كانت البادية مما يلي جنوب العراق خاضعة لنفوذ الشيخ ابن عريعر زعيم بني خالد ، ويتطلع فى تلك الانحاء الشيخ محمد بن مقرن ومن بعد الشيخ محمد ينهض ولده سعود مؤسس الدولة السعودية لاولى سنة ١١٤٠ للهجرة • وفى عهده يطلع الشيخ محمد بن عبدالوهاب بن محمد بن سليمان بن علي التميمي فى دعوته الدينية بعد ان درس الفقه فى الحجاز والعراق والاحساء ، ويعرض دعوته على رجال الدين المعاصرين له فيرفضونها ، وطاف بها على زعماء الجزيرة العربية فيعتنقها الشيخ سعود بن محمد بن مقرن من أسرة (المانعه) نسبة الى شيخ مانع مؤسس الدرعيه ، كما جاء فى مجلة لغة العرب مجلد ٣ صفحة ٢٢٨ وسميت الدعوة بالوهابية نسبة الى ابن عبدالوهاب الذى جعل سعود بن محمد اماما للوهابيين ، واستولى سعود على معظم البلاد النجدية وخلفه ولده عبدالعزيز متعاونا مع ابن عبدالوهاب • فاستولى على الديار النجدية والقصيم وانهى زعامة ابن عريعر وادخل بني خالد فى طاعته ، هذه دولة آل سعود الاولى التى انتهت فى عهد عبدالله بن عبدالعزيز وذلك عام ١٢٣٣ للهجرة ، ولكن فى ١٢٤١ تمكن الامام تركي بن سعود من تأسيس الدولة السعودية الثانية التى انهارت عام ١٣٠٨ للهجرة ، وظهرت

امارة جديدة فى نجد وهي امارة آل رشيد العائلة النجدية المحترمة ومؤسسها عبدالله بن علي بن رشيد الذى ولاه سعود امارة حائل فى عام ١٢٤٦ ، وبقي آل رشيد عمالا للسعوديين ثم خرجوا عليهم وتمكن محمد بن عبدالله بن الرشيد ان ينتزع امارة نجد من السعوديين عام ١٣٠٨ ، وفي عام ١٣١٩ هزم عبدالعزيز عبدالرحمن آل رشيد واسس الدولة السعودية الثالثة ، وسميت المملكة العربية السعودية • ان امارة آل رشيد ابتدأت بعبدالله بن علي وختمت بمحمد بن طلال وكان عمرها تسعين عاما ، وفى عام ١٩١٣ عزم عبدالعزيز بن عبدالرحمن على احتلال الاحساء فانتزعها من الاتراك بدون معركة ولم يكن يعلم بما ساقه القدر اليه من الثروة الطائلة •

ما أسعد طالع أسد الجزيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن الذى جمع بين السلطة الروحية والسلطة المادية ، فهو فى الاولى الامام وفى الثانية مالك الملايين من الاطنان من الذهب الاسود الذى وفرته له الاحساء ، فهل يدري أبو طاهر القرمطي عندما هجر هجرا وانشأ تلك المدينة الصغيرة المحصنة انها سوف تصبح أهم مركز اقتصادي بعد مرور عشرة قرون من تأسيسها الذى كان فى القرن العاشر للميلاد ، وذلك بواسطة الثروة البترولية الكامنة فى احشاء الاحساء الفقيرة المقفرة هل يدري أبو طاهر ان كعبة القرامطة أصبحت بين عشية وضحاها تملك المرتبة الثانية فى العالم لاحتياطي البترول •

لقد كان في عرض الخليج العربي جيوب يتكاثر فيها اللؤلؤ مكون امجاد البحرين الغابرة ، وكان بحارة الاحساء يتقاسمون مع بحارة البحرين صيد اللؤلؤ ، وكانت لهم الجرأة في ركوب البحر كما انهم يتفقون مع اسياد الصحراء في التفكير والاتجاه ، وقد كانت الاحساء ملجأ لبدو الجزيرة في تلك الانحاء وفي الاحساء كانت منطقة (الهفوف) ذات البركات الزراعية ، وقد أصبحت الاحساء السعودية قاعدة للاميركيين أو منطقتهم الوحيدة على الخليج التي بقيت بعيدة عن نفوذ الانكليز ، ويمكن ان يقال ان الاحساء السعودية عائمة على بحر من البترول ، ان تلك المنطقة التي صارت عاصمتها (الظهران) قد ادهشت العالم بكنوزها وثروتها المتنامية لقد تخطت الشحنة من مليون برميل عام ١٩٣٨ تخطتها الى ٥١ مليون طن في عام ١٩٥٨ ، وفي الظهران اليوم قاعدة جوية مهمة تشتمل على جهاز كامل يستطيع ان يستقبل أضخم الطائرات الحديثة ، وبرغم الطبيعة القاسية في تلك الصحراء ترى الظهران بقصورها وشوارعها واسواقها وفنادقها وكهربائهاومكيفات هوائها وسياراتها والاجهزة الفنية للهاتف والراديو والتلفزيون واللاسلكي وآلة التبريد وتلك المعلبات والقوارير وما حوت وذلك الاثاث والرياش تشكل مدينة أمريكية حديثة ولكن بين الهفوف والنفود ، قالى لي الشيخ عبدالله آل مطلب السعدوني لم لا تعرج علينا فقلت اني لا أحب المرور على جهنم فقال لا انك تمر على الجنة فقلت هب انكم رتبتم كل شيء في المساكن فكيف بعبور الحامية من

الشوارع أنه عبور من لظى الى سقر • فقال كلا ان فى السيارات فتحات يهب منها صبا نجد واعذب ، وربما تحتاج الى وقاية من البرد •

« البحرين »

وقديما كانت تعرف باسم « تيلوس أو ارادوس » ويظهر من سبر التاريخ ان اسم البحرين لم يكن مقتصرا على هذه الجزر الثمانية كما هو معروف اليوم بل كان يطلق على رقعة تمتد من موقع البصرة الى عمان ، وسميت بالبحرين لموقعها بين الخليج وبين بحر عمان ، وخلفها الصحراء من جزيرة العرب « الربع الخالي » وكانت هذه الرقعة تشمل ما يسمى اليوم بالكويت والاحساء وجزر البحرين وقطر وأبو ظبي ، وأخيرا فى عهد البرتغاليين فى هذه الانحاء اقتصر اسم البحرين على الجزر الثمانية وما يتبعها • وأول من سكن تلك الرقعة من العرب البائدة طسم وجديس وكانت منازلهم فى اليمامة التى عرفت بعد ذلك بالعروض واشهر بلاد العروض اليوم الرياض عاصمة السعودية •

وتقع بحرين اليوم قريبا من ساحل بخيل لا يعرف العطاء ، وهناك تنتشر ست وعشرون جزيرة المهم منها ثمانية كما ستعرف ، وكل مساحة البحرين لا تتجاوز الستماية كيلومترا مربعا وعاصمتهما المنامة أو المدينة البيضاء ونفوس العاصمة ٤٠٠٠٠ ألفا تقريبا وحواليها البساتين وفيها صديق البلاد العربية النخل وتسقى بسواقي الينابيع ويربطها بجزيرة

« المحرق » جسر طويل ولا تزال اهميتها كما كانت من قبل سوقا لتجارة اللؤلؤ ، وقد كان باعته يجلسون فى دكاكين تفوح بالروائح الطيبة من البخور والمسك وبين ايديهم اكوام من حبات اللؤلؤ المختارة فهم يتعاطون بها وحبيب الى نفوسهم ذلك العمل وترى اناملهم تدحرج اللؤلؤة بنشوة لا تقل عن نشوة الغاطسين الحالمين ، وصناعة البحرين من قديم الزمان صيد اللؤلؤ فقد وجدت مخطوطه اشوريه تعود الى ما قبل أربعين قرنا فيها اشارة الى لؤلؤ البحرين ، وكل الاساطير تنوه بتلك الثروة وتذكر تلك المشقة التي يتحملها الغطاسون ، وهكذا كان البحر الغني ، مادة حياة لذلك البر الفقير طعاما وزينة وتجارة ، قال الله سبحانه وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه وابتغوا من فضله لعلكم تشكرون .

وكان حديث الغوص الكبير فى البحرين لذيذا وممتعا ، وكان موسمه يبتدىء من أيار حتى مرور أربعة أشهر يحيا فيها الغواصون حياة بحرية صرفة ، فهم يعيشون طيلة هذه المدة وقلوبهم تخفق بالامل ، وكان لبداية موسم صيد اللؤلؤ ونهايته مواسم ومهرجانات ينزل اليها أمير البلاد ليدشن حفلة الافتتاح لكل موسم ويختمها كذلك ، وترى الشعب كله فى غمرة من السرور ، ولم تؤثر اليابان بلؤلؤئها الصناعى على لؤلؤة البحرين فما نزل سلطان لؤلؤ البحرين عن عرشه الا عندما تفجر البترول معلنا نهاية دولة اللؤلؤ وبداية دولة الذهب الاسود ، التي خطت التاريخ الجديد لبلاد العرب

ومنها البحرين وحققت الانقلاب فى الاقتصاد والاجتماع والثقافة ، والبحرين قسمان قديمة وحديثة .

« البحرين القديمة »

يظهر من مواد الاثار الكامنة في طبقات تلك الارض ومن بقايا جذور وعظام ، ان تلك البطون والظهور في بلاد العرب وما فيها من انقاض قصور وقبور كانت فى الزمن العتيد فى وضعة غير الوضعة الماثلة ، فالكثير من ابحاث علماء العصر المتوغلين فى جزيرة العرب تثبت ان ذلك القفر الخالي كان موشحا بغابات وبساتين وخلجان وانهر ومدن وقرى ولكن الدورة الزمنية غيرت المناخ ، فما جت الملايين من العرب تخلصا من الجفاف واعجبتهم عيون سورية الفوارة ومجاري النيل السعيد ومهابط الفراتين ، وشاهدوا وشاحا للحياة يزهو بخضرته فصعدت الجماعات العربية موجة أثر موجة ، وتمكث جماعة من الاهل الخلص صابرة على المكروه عزة بالوطن الام وكثير اولئك الذين تمكثوا ولكن طواهم كر الغداة ومر العشي ، ولاهل البحرين القديمة ترجع المقبرة التاريخية تلك الجبانة التى تبعد عن مدينة « المنامه » مسافة ثمانية اميال وتقع فى قفر خال وعلى بعد من « جبل الدخان » ذلك الجبل المشهور فى بادية البحرين ، حيث يجد السالك بين مدينتي الرفاع « والمنامه » وهو موغل فى البادية يجد مدينة الموتى وتسمى « المراقب » ففي تلك المدينة اثار مقبرة دارسة تلوح وكانها قرى متفرقة كل قرية تحتوى على ٣٠٠ قبردارس

ومجموع هذه القبور الدوارس يزيد على الستة الاف قبر قد نبت عليها العوسج وغطاها الشيح والقيصوم ، ويقال ان هذه المقابر فينقيه ففي عام ١٨٨٩ ميلادي اجرى احد علماء الاثار تنقيبا في هـذه المقابر وبعث بشيء منها الى المتحف البريطاني وبعد الدراسـة قررت اللجنـة التي درستهـا انهـا من مقابر الفينيقيين ذلك قبل هجرتهم الى سواحل الشام وفلسطين ، وقد عثر في بادية الاحساء وبادية « الخرج والافلاج » من نجد على مقابر تشـبه ما في البحرين ، وفضـلا عن ذلك فقـد ذكروا ان في الشرق من الجزيرة العربية اسماء لمدن دارسة هي نفس اسماء المدن التي انشأهـا الفينيقيون على سـواحل الشام وفلسطين ، مثل صور التي كانت على ساحل عمان ومثل « جبيل » التي كانت على ساحل الاحساء ومثـل « ارادو » وهي الاسـم القـديم لجزيرة « المحرق » وفي البحرين القديمة قيل بوجود مدينة تسمى « صيدا » تقع على الشاطيء الشرقي لجزيرة العرب ، كل هـذا يؤيد ما جاء في مجلة لغة العرب وما نصه « الظاهر ان الفينيقيين من أصل عربي ، فقد نقلت التقارير القديمـة انهم ظعنوا من الديار المجاورة للخليج الى سواحل الابيض المتوسط » وكذلك يرى •• جان جاك في كتابه الخليج العربي صفحة ١٦٩ فيقول ان الفينيقيين انطلقوا من البحرين الى الساحل الشامي •

وفي البحرين القديمة كانت مملـكة مازن بن الازد ، وكان لها اسـطول مرهوب وعسى ان يكون من مخلفات ذلك الاسطول ما نسمعه اليوم من اولئك النوتيه الذين يعملون في

السفن الشراعية الماخرة فى شط العرب والخليج نسمعهم يرتلون نشيدا يستعينون به على المتاعب وذلك النشيد غريب في لهجته انه عربي وليس بعربي ، واذا صدق الظن فانه بقية لاولئك البحارة من مازن ، وهذا النشيد الذى اشكل علينا قد اشكل من قبل على الحجاج بن يوسف فسأل زياد المازني عنما يقوله بحار عربي من بلاد الخليج فرد عليه متأثرا ما انا وما يقول انما انا صاحب سيف ورمح فقال له الحجاج يا مازني أنت صاحب مجداف ، ومن هذا الحوار يظهر ان العرب بعد الفتح الاسلامي تعرف ان مازنا كانت بحارة ، وكانت هجر قاعدة البحرين القديمة لكن القرامطة هجروا هجرا وبنوا الاحساء .

« البحرين الحديثة »

هي مجموعة من الجزر فى الشمال الغربي من بلاد عمان يحدها من الشمال دارين ومسافة ما بينها ٦٠ ميلا ومن الغرب العجير ومسافة ما بينها ١٠٠ ميلا ومن الجنوب قطر ومسافة ما بينهما ٣٠ ميلا ومن الشرق الخليج ، ويشتد الحر فى بلاد البحرين أما بردها فمعتدل وهوائها كثيف مرطوب ومياهها عيون نابعة وهي كثيرة تسفح على وجه الارض بغزارة منها السقي وعليها الغرس ولكن أهل البحرين لا يعتنون بالزراعة ومن جراء ذلك يبتلع الاجاج كثيرا من الماء العذب ، ومن الغريب ان بعض هذه العيون ينبع فى وسط البحر بقوة وكثيرا ما يستقي الاهلون من تلك النابعة وسط

البحر لانها اعذب ، وماء «الحنيني» احسن ماء فى البحرين وهو قليب فى قرية « الرقاع » عمقـــه ٢٧ مترا حفره أبو العائلة الحاكمة خليفة بن سليمان حفره بعناء وبذل لانه نحت من صـــخر ، « وعين أم حصاة » الواقعة فى « الصـــخير » وهو منتزه لاشراف وعليـــة القوم وهـــذه العين تشـــاطر فى عذوبتهـــا قليب « الحنيني » ، وأشـــهر عيـــون البحرين عين العذارى وموقعها فى قرية « الاندفاع » تسقي نخيلا كثيرا وعمقها ستة اقدام فى دائرة يبلغ خط انقســـامها ٣٥ مترا ، ومن العيون الشهيرة فى البحرين « الكرش » «وأبو زيدان» « وبرابر » وفيها يقول عبدالجليل الطباطبائي .

دع الـــكرش تصـــلى بالسموم سباخه
فليس أبو زيدان ممن يكـــابر
ومـــا للعذارى في عذارى ولا الوحى
مقـــام اذا لا حلت لهن برابر

ومن الغريب ان عاصـــمة البحرين متغلغلة فى القفر ومجاري المياه تصب فى البحر وأهل العاصـــمة برغم غزارة المياه في وطنهم يتكلفون كثيرا في الحصول على المياه الكافية.

ويوجد فى البحرين اليوم ثمانية مدن كبيرة وهى «المنامه والمحرق والحد وقلالي والبديع وجد حفص وســـره والبلد القديمـــة » ، أما القرى فكثيرة الـــكبيرة منها تعـــد ٦٠ قرية ونفوس البحرين ١٤٠٠٠٠ تقريبا ، ويوجـــد اليوم فى بلاد البحرين نحو ٤٠ ناديا ثقافيا ورياضيا و٥٠ مدرســـة ابتدائيـــة وثانوية وللبنـــات ثانوية واحـــدة واخرى للصناعـــة ، وعدد

الطلاب الذين يتلقون العلم فى المدارس الحكومية والمدارس الخاصة ٤٥٠٠٠ طالب وطالبة وتوفد البحرين سنويا ما يقارب ١٥٠ من الطلبة للدراسة الجامعية ، وتصدر فى البحرين ثلاث مجلات « الجريدة الرسمية ومجلة الاذاعة ومجلة شركة النفط » وان التعليم والتطبيب مجان • وفى العاصمة يقيم شيخ البحرين والحكومة هناك حكومة وطنية قديمة مثل أهل البحرين تدار بالعرف والعادات لا بالقانون والانظمة ، فهي مشيخة لا حكومة وأخيرا وبواسطة النفوذ الانكليزي وجدت في البلاد بعض القوانين ، وحاكم البحرين هو الشيخ عيسى آل خليفه وقد توفي وخلفه ولده أما الممثل السياسى فبالرغم من تظاهره أنه مستشار الشيخ ولكنه الحاكم المبرقع ، كما ويوجد انكليزي آخر يدير الشؤون القضائية تحت اسم المستشار القضائي وادارة الشرطة يرأسها بريطاني، وتأسست فى البلاد محاكم مختلطة فاذا عرضت قضية اجنبية تبت فيها تلك المحكمة واذا عرضت قضية اسلامية تحال الى محكمة الدين وفى عام ١٣٣٥ للهجرة طلب المعتمد البريطاني فيما اذا عرضت قضية مشتركة بين التابعيتين ان يبت فيها معتمد الشيخ والمعتمد البريطاني •

وآل خليفه نجديون كانت اقامتهم فى « الهدار »من منطقة الافلاج في الجنوب الغربي من الرياض وقبل نزوحهم الى البحرين نزلوا « زباره » من « قطر » قبالة البحرين ثم نزلوا الكويت مع ابناء عمومتهم آل صباح ومع عشيرة الجلاهمة واتفقوا على ان يتولى رئيس آل صباح شؤون الحكم

وشيخ آل خليفه شؤون التجارة ورئيس الجلاهمة شؤون البحر ، وفى عهد الشيخ محمد بن خليفه انفصم الاتفاق وانفصل الشيخ محمد وعشيرته تاركا الكويت وعائدا الى « زباره » ثم اكتسح البحرين ونزل فيها ، ومن هذا التاريخ استقام الامر هناك لال خليفه وفى بعض الاوقات امتد حكمهم الى « زباره » والى زنجبار ، ولم تكن في البحرين أولا عاصمة لال خليفه بل كانوا فى زباره ويرسلون الى البحرين واليا من قبلهم وفى عام ١٢٣٠ للهجرة انتقلت عاصمتهم الى مدينة « منامه » فى البحرين وارسلوا من قبلهم واليا على زباره وقطر .

وقد مر على امارة آل خليفه فى البحرين ١٥٠ عاما تقريبا ، وينقسم سكان البحرين الى السلف وهم العرب والى الحضر وهم خليط من فرس وهنود وافرنج ، وأهم مصادر البحرين اليوم النفط واللؤلؤ والجمارك ، وشيخ البحرين هو الذى يرعى اخراج اللؤلؤ وتصديره أما النفط فتتولى اخراجه وتصديره شركة اجنبية وتاريخ امتيازها ١٩٢٩ أما الاستخراج فعام ١٩٣٣ ، وتقسم واردات النفط اثلاثا للشيخ واسرته ثلث وللشؤون الداخلية ثلث وثلث يحتفظ به فى المصارف الانكليزية لحساب حكومة البحرين ، وقديما اختلفت ايدي الامم على ادارة البحرين فعرب وفرس وبرتغاليون وانكليز ولا زال النزاع قائما بين العرب والفرس على حق التابعية وسر هذا التجاذب هو وقوع البحرين بين بلاد العرب

وبلاد الفرس وانقسام التجارة والمواصلات بين البلادين أما أهل البحرين فلا غبار على عروبتهم .

لقد جابهت البحرين صعوبات جمة وكان عليها دائما ان تشتري الدولة أو الامارة التى تريدها تشتريها بالاتاوات وبذل المال ، وفى عهد الشيخ محمد بن خليفه اعتبارا من ١٨٤٣ حتى ١٨٥١ سادت البحرين فتن واضطرابات داخلية ذهب ضحيتها الشيخ عبدالله بن محمد وقد كان شيخ البحرين يلتجيء الى ذوي السلطة فى غربه وشرقه ففي سنة ١٨٤٣ كان تابعا أو لاجئا للسيادة الايرانية ، وفى ١٨٤٩ التجأ الى الحكومة البريطانية تخلصا من تهديدات الامير فيصل بن تركي الوهابي ، وفى ١٨٥٠ طلب السيادة العثمانية ، وفى ١٨٥١ قدم حاكم البحرين الاتاوه الى الامير فيصل بن تركي ، وفي مايس سنة ١٨٦٠ رفع العلم الايراني على البحرين لمدة أربعة أشهر فقط ثم انزل ورفع العلم العثماني ، وهكذا كانت البحرين لمدة وجيزة تستبدل سيدا بسيد ، وفي الحقيقة ان الموقع الجغرافي لجزر البحرين جعلها متأثرة بالسياسة التى كانت فى الساحلين الفارسى والعربي الامر الذى اضطر البحرين فىظروف قاهرة الى قبول السيادات الاجنبية ايرانية ومسقطية وتركية وسعودية بل ومصرية عندما زحف ابراهيم باشا على تلك الانحاء ، ودفعت الاتاوه للدولة القوية فاذا أخذنا بادعاء الحكومة الايرانية اليوم لانها دخلت البحرين مؤقتا او حمتها موقتا يصبح لكل دولة من تلك الدول والامارات التى مر ذكرها ان تدعي بالسيادة على البحرين .

يرجع التاريخ الحديث لجزر البحرين الى ١٧٨٦ عندما هاجمت قبائل عتيبه جزر البحرين هابطة من زباره ، كما وان الظاهر ان عائلة آل خليفه وصلت البحرين فى أواخر القرن الثامن عشر للميلاد وبمساعدة ابناء عمومتهم آل صباح وبعد مدة تمكنت من السيطرة على طرق التجارة بين البصرة ومسقط وارتقى وضع البحرين الاقتصادي ، أما من الجهة السياسية فان استقرار العرب فى البحرين ونجاحهم فى مقاومة الهجمات الفارسية قد حول مركز الثقل السياسى من الساحل الايراني الى الساحل العربي ، وقد حاولت بريطانيا الوقوف بين الوهابيين الذين كانوا أعظم قوة برية فى شرق جزيرة العرب وبين امام مسقط وشيخ البحرين وما لهم من مركزية فى الخليج .

« قطـــر »

قبالة البحرين والى الجنوب لسان ممدود حول شبه جزيرة صحراوية لا ماء فيها ولا كلاء تلك هي قطر التي كان يعيش فيها خمسة وعشرون ألف نسمة تقريبا ومساحتها عشرون ألف كيلومترا مربعا ، وهي كما قلنا اشبه بجزيرة قاحلة لا يوجد فيها من السكان الا ما كان فى بعض الاكواخ وفيها قليل من الابار وشجيرات نخيل وسكانها من تميم وعاصمتها الدوحة وزعامتها اليوم فى آل ثاني من التميميين ولم يكن لهم مورد غير صيد الاسماك وركوب البحر والغطس لصيد اللؤلؤ ان حصل ، ولكن تفجر البترول هناك فبدل

الحال وانهال الذهب على قطر ففي عام ١٩٥٧ قبض أمير قطر ستة عشر مليون جنيه استرليني من الشركة البترولية ، ولم يبق من الدوحة القديمة أثر فقد زالت الاكواخ ونهضت البنايات الحديثة القوراء واختفى ذاك الزقاق الطويل الذى كانت تمرح فيه الكلاب السائبة وتسرح فيه المعزه السوداء باحثة عما تقتات به من النفايات ، وظهر بمكانه الشارع الفسيح الفاره المعبد والمزفت والمشجر ترى فيه السيارات الفخمة قاطعة جمود الصحراء أو ذهولها من هذا الانقلاب وشاغلة فراغها ، وقد لطفت الحياة مصابيح الكهرباء وصناعة الكهرباء وانتشرت محلات التبريد وآلات تكرير المياه العذبة وتكييف الهواء ، وبثت المدارس الحديثة المزودة بأحسن زاد للعلم وجلبوا لها الاساتذة المتازين والاثاث الفخم ، وانشأ أمير قطر مستشفى مزودا باحدث الالات الطبية وسائر اللوازم والتطبيب فى قطر مجانا ، وقد اجتذب ذلك التقدم الكثير من المهاجرين واثرى قسم من السكان ثراء فاحشا ، وانبثقت مجالات اقتصادية وانشىء هؤلاء الاغنياء الجدد كثيرا من العمارات الضخمة والمزخرفة والمزودة بكل وسائل الرفاهية ، واستوردوا أهم البضائع والرياش باسراف وبذخ وامتطوا الكاديلاك عوض البعير فلا خف ولا ظلف انما دواليب واجنحة .

« الحيرة »

وتسمى المدينة البيضاء قيل انها تحريف كلمة « حرتا »

السريانية ومعناها المخيم أو المعسكر ومما يدل على ذلك قولهم « حيرة النعمان » أي حصنه أو معقله وهكذا كانت أول نشأتها ثم تكاثرت حولها الابنية وموقعها يؤيد ان تكون حصنا لانها قائمة على المرتفع من النجف وعلى طفوف جزيرة العرب نهضت مدينة الحيرة أولا في عهد الكلدان ثم هجرت وعادت في عهد الفرثيين وهم الطبقة الفارسية التى سبقت الساسانيين ويطلق عليهم النبط ويعرف عهدهم بعهد ملوك الطوائف ، وفى ذلك العهد كانت الحيرة داخلة فى مملكة التنوخيين من الازد وكانت عربية مستقلة ومن التنوخيين انتقلت الى اللخميين كما ستعرف ذلك ، وقد توسعت ونمت ولكنها كانت خاضعة لما يشبه الانتداب الفارسى ، ويطلق على اللخميين اسم المناذرة لكثرة من سمي منهم بالمنذر وكان انتقالها من التنوخيين الى اللخميين بواسطة عمر بن عدي الذى ورث الملك عن خاله جذيمه الوضاح خاتمة اللخميين ، وليس للفرس يد فى تأسيس الحيرة هذه انما هي عربية بحته ، ولكن بعد ان قويت سلطة الاكاسره كان لهم على الحيرة من النفوذ ما يشبه الانتداب وكانوا يتدخلون فى شؤون تلك الامارة وكان في الحيرة مندوب فارسى ولهم هناك قطعة جيش وهي أحدى الكتائب الخمس التى كانت للنعمان ـ الرهائن ـ الصنايع ـ الاشاهب ـ دوسر ـ الوضائع ـ وهذه هى القطعة الفارسية وكانت تقيم سنة ثم تستبدل بغيرها ، وقد يستقل أحد ملوك الحيرة استقلالا تاما فيسرح الممثل الفارسى والقطعة العسكرية ، وفي قضية بهرام بن يزدجرد فرضت المناذرة

ارادتها على العرش الفارسى وذلك ان الفرس بعد يزدجرد ابوا ملوكية ابنه بهرام ، لانه نشأ في الحيرة نشأة عربية في بلاط المناذرة وعندما التجأ بهرام الى ملوك الحيرة مدوه بالكتائب العربية وثبتوا عرشه ، وعدد ملوك الحيرة ١٧ ملكا أولهم عمر بن عدي وآخرهم النعمان الرابع ، وكانت الحيرة بادية وريفا من أجمل المواقع تسمع فيها الباغم والمترنم وتربتها جيدة الخصوبة ، تراها وانت على نشز من الارض جنة وارفة حولها البساتين والسواقي وفى شرقيها نهر الفرات وضفافه الخضر ، وكانت الحيرة قائمة على جانبي نهر يتفرع من الفرات اسمه « الكافر » وعليه جسر يربط الجانبين وقد سمي بنهر الحيرة ، وللادب والمعرفة فى الحيرة المحل الارفع كما يدل على ذلك مفاخرة وفد النعمان والشعر الجاهلي الذى تجمع فى الحيرة وفى مقدمته شعر النابغة ، وكانت الديارات حول الحيرة مدارس علم وادب ومن ذلك تجمع الكنز الشهير فقد قيل ان النعمان تخير الشعر العربي وكنزه فى بيته الابيض ، والاديب الحيري كان يحذق الفارسية والسريانية واليونانية فقد كان عبود الحيري ترجمانا للقائد الفارسى رستم فى القادسية ، أما الخط الحيري الشهير فهو أهم تطور فى الخط العربي بعد الخط الانباري وقبل الخط الكوفي . والحيرة بلاد زهو وبذخ وما كان فيها من البركات والعمران كان السبب المهم للابهه والترف فقد كثر فيها المترفون من فتيان وفتيات وكثر فيها الطرب والات الطرب حتى شاع فى الافاق الغناء الحيري ، وكانت فيها أماكن للشرب محفوفة

بحدائق غناء ومنتزهات حسبما ذكره الاصبهاني فى اغانيه عن اخبارها ، وتنتشر فى الحيرة وما جاورها القصور والديارات التى يكثر فيها التفنن بالريازه والنقش والتزويق والقرمد والدمى ، لقد حفظ التاريخ لهذه الديارات صورا رائعة كلها وحي يلهم الاحساس ويرهف الشعور فقد كانت على جانب عظيم من النفاسة وجليل العمارة تعلوها قباب وقورة تلوح بالابهه والهيبة والجلال من بعيد ومن قريب ويزينها البهاء والرواء من الداخل ، فهي مزوقة بأنواع الفصوص واشكال النقوش والابداع فى الدهان والاصباغ يفرش ارضها الرخام المجزع وكل بلاطاتها مرمر مسنون تراه كانه ممرد تزلق عليه الاقدام وفى شقوق عماراتها الفسيفساء واللازورد وعلقت فيها القناديل من الذهب والفضة والى جانب تلك القناديل الصلبان من ذهب وقد رسم على جدرانها وحيطانها صور الحور الملونة بازهى الالوان تتقدم تلك الصور صورة المسيح وعلى رأسه اكليل الشوك وصورة مريم فى نفاسة صنع وابداع فى الوضع بحيث ترى تلك الصورة حيثما اتجهت وقد ذكر الشابستي ان في دير هند قناديل من ذهب معلقة وعتبات من فضة ، وفى الحيرة النساج والقيون ، وقد كان فيها معرض للازياء خصوصا ازياء الاميرات والامراء وحاشيتهم وفيها أول ما ظهر الخف المكعب فقد جاء فى العقد الفريد ان حنينا الحيري كان يلبس الخف المكعب ، وكان ملوك الحيرة يلبسون التيجان والحيريون يلبسون العمائم ، وفى الحيرة ظهرت البزه الرسمية وهي التى كانوا يسمونها

اثواب « الرضا » جباب مقصبة بالذهب المزركش بالزمرد كانت ملوك الحيرة تهبها لمن أحسن الخدمة وكانت هذه الكسوة بمثابة الالبسة الرسمية التي تعاطاها اليوم ، وفي الحيرة وجد العمل الصيرفي المتقن لانها كانت محطة تجارية كبرى بين بلاد الفرس والهند وسوريا وبلاد الروم . لقد عظمت الحركة الاقتصادية فيها وفاض المال حتى ان الاهالي لسعة ذات اليد عندهم كانوا يتعاملون أولا بالذهب وزنا فقد ابتاع « اوس بن غلام » ارضا بثلاثماية اوقية ذهبا وانفق على عمارتها مائتي اوقية ، وكانت الحيرة لطيب هوائها تعتبر مصحا فقد قيل يوم وليلة في الحيرة خير من دواء سنه ، هذه أهمية الحيرة قبل الفتح الاسلامي وقد بقيت عامرة لها اهميتها الى العهد الاموي واليك شيئا من وصفها آنذاك فقد اتفق ان بعض الولاة الامويين الذين كانوا في الكوفة تعرض لذكر الحيرة في مجلسه فذمها ، وكان قد حضر المجلس حيري ظريف فقال ايها الامير تصيب بلادا يضرب بها المثل في الجاهلية والاسلام ، فقال وبماذا قال بصحة هوائها وطيب مائها ونزهة ظاهرها واكتفائها الذاتي من الخير والبركات انها تصلح للخف والظلف سهل وجبل بادية وبستان بر وبحر محلة الملوك ومسكنهم ولو قدمتها اصلحك الله مخفا لخرجت مثقلا ولاصدرتك مكثرا ، فقال الامير وكيف نعرف ما وصفتها به من الفضل قال بان تجيئني فيها ثم اطلب ما شئت من لذاذات العيش فوالله لا اجوز بك الحيرة في كل ما تشتهي فقال له . اصنع لنا فانا مصبحون ان شاء الله ،

وعندما نزل عليه الامير وحاشيته اطعمه من خبز الحيرة وسمكها وطيورها ولحوم ظبائها وسقاهم ماءها في قلالتها وخمرها في آنيتها واجلسهم على اسرتها واتخذ لهم من فراشها الوثير ولم يستخدم الا من مواليدها ثم غناهم حنين بشعر عدي بن يزيد شاعر الحيرة وشيئا من شعر اعشى همدان وحياهم بريحانها وتقلهم بفواكهها ثم قال ايها الامير هل رأيتني استعنت بغير ما في الحيرة ، فقال لا والله لقد احسنت صفة وطنك ونصرته وبارك الله لكم في وطنكم .

كان حنين الحيري مغني العراق الوحيد وقد جاء في كتاب الاغاني لابي الفرج ان ثلاثة من كبار المغنين في الحجاز وهم معبد وابن سريج والغريض وكان في العراق مغن واحد وهو حنين ، فكتبوا له نحن ثلاثة وأنت واحد فأنت أولى بزيارتنا ولما جاءهم اجتمعوا وازدحم الهواة من الناس على سطح المنزل الذي اجتمعوا فيه وكثر المزدحمون للاستماع حتى سقط الرواق على من تحته ومات حنين تحت الردم .

وبدأ خراب الحيرة بنشأة الكوفة ، فصارت مادة لبناء قصورها ومساجدها وبيوتها وفي الحقيقة ان الحيرة ما ذهبت ولا بادت ولكنها تحولت فاني لا أرى الحيرة والكوفة والنجف الا مدينة واحدة واسعة يعمر طرف منها ويخرب طرف .

والحيرة اليوم قرية صغيرة يطلق عليها الفلاح العراقي اسم « الجعاره » وقد أصبحت غمقا ووباله هواء وخيم وارض

نر وماء غير طيب تسمع فيها صفير الجدجد ونقيق الضفدع وموقعها قريب من النجف وبينها وبين الكوفة مسافة هينه .

« البصرة ـ والكوفة »

أين من يخط بطرافة وامتاع ما تم للبصرة والكوفة فكم فى مطالع البصرة والكوفة من نجوم للعلم والادب وقادة وبناة تعاونوا على رفع هذين البرجين للفكر فى دنيا العرب ، لقد كان بين المدينتين سباق للفضيلة والادب الرفيع ، ان عهد البصرة والكوفة « رعاه الله من عهد » كان عهد بناء شيد قبة الاسلام وخزانة العرب ورواق العلم وديوان الحكم وفيهما نشأت دولة الادب العربي وقام سلطان القومية .

منبران قام احدهما على لسان البر بين الحيرة والرهيمة وقام الآخر على لسان البحر بين المربد وشط العرب فاين من يستند الى منبر نهج البلاغة أو يجلس محتبيا فى ندوة المربد فيطارحنا ويحاضرنا بما فجرته البصرة وما تفتقت عنه ذهنية الكوفة ، وها انا بين الانقاض واكوام الخراب التقط بعض الدرر . وبما ان البصرة اول مدينة عربية فى العراق للعهد الاسلامي بدأت فى البحث عنها .

« البصرة »

أول مدينة عربية عراقية فى العهد الاسلامي عربية الاسم والنشئة والاخلاق وحتى اليوم ترى الطابع العربي لامعا

في تلك المدينة ، واصوب ما قيل في تسميتها ان ابن السهل والرمال عندما اطل على تلك البقاع قال انها أرض ذات بصرة أي ذات حجارة رخوة طيبة ، وهل كانت في تلك الانحاء عمارة قبل البصرة وقامت على انقاضها أو ان تلك البقعة كانت مغمورة بالمياه المنبطحة منذ كان مد البحر يصل الى مدينة اور الكلدانية ، لقد ذكر الباحثون ان « تريدون » الكلدانية كانت قائمة هناك وبعد ان خربت قامت على انقاضها مدينة « هشت اباد » « اردشير » الفارسية وخربت وعلى انقاضها قامت البصرة ، وقد ضعضع المثنى وبنو شيبان تلك العمارة الفارسية حتى استخف بها العرب وسموها الخريبه ولكن الطموح العربي صير تلك الخربة مدينة مهمة نهضت شامخة على عتبة الخليج ، ذلك الموقع التجاري فكانت ثغر العراق الباسم الذي لم يزل مجالا حيويا للنشاطات التجارية ، جميل ذلك اللسان المائي وعلى جانبيه اضراس النخيل ، وما ابدع ذلك النهر المزروع بالشرع البيضاء التي تتخافق مصعدة ومنحدرة وقد يمرق من بينها زورق بخاري خاطف يرسم ورائه خطا ابيضا مستطيلا سرعان ما تمحوه الامواج التي يثيرها ذلك المارق ، ويعجبني ذلك النوتي الذي يجذف جندول البصرة والعشار لا جندول البندقية وفي اعالي الافق الاخضر بسعفات النخل تتلاقى نبرات صوت النوتي بصوت ذلك اللاقط لحبات الرطب الذهبية ، وبين تلك الزوارق الشراعية والبخارية تمخر الجواري الجبارة ، وترى افيلة البحر تمتص بخراطيمها وتعب المزيد من البترول ، ولا

يزعج المتجول في تلك الدنيا غير ذلك النفس الكريه وتلك الرائحة التي ترسلهـا مداخن مصافي النفط بحور الجن ونفس الابالسة ، وبديع منظر دواب القرن العشرين من السيارات المتخاطفة على الرصيف في الشوارع الفسح ، وحول البصرة تكونت سلسلة من انبطايح منذ الاف السنين وفي تلك البطايح يعيش اغرب ناس عرفهم التاريخ ابتداء من عهد السومريين ، وكانوا يسكنون جأجيء بدائية ولا زالت حتى اليوم كما وصفتها الاساطير البابلية وكانت في البقعة الجنوبية نشاطات سومرية وكلدانية وفارسية وعربية وهي آخر طرف للهلال الخصيب .

جاء العرب الى الخريبة بكل بساطة ولكن تظافرت الجهود فانقلبت البساطة الى عظمة ، جاء البطل بن غزوان بأربعين فارسا يجول بخيله حول التخوم الفارسية العراقية ودنى من الخريبة وكانت مسلحة للفرس ثم تلاحقت الرفاق بتلك الطليعة حتى تكاملوا ٦٠٠ وكانوا خفاف العياب مجردين الا من اهبة الحرب وكريم الاخلاق ، وكان الايمان القومي ونشاط العزيمة ملء اهابهم بهذه الكوكبة الجريئة حملوا على المسلحة الفارسية الواقعة بجنب الابله وناجزوا حاميتها وانتزعوها من ايديهم ، ومن بساطة حملة اولئك المغامرين انهم لما فتحوا تلك المسلحة كان بالقرب منها نهر سموه فيما بعد نهر المرأة وكان عليه قصر ولجوه مفتشين بيوته عن بلغة من الطعام فلم يعثروا على شيء وتوغلوا في اجمة أشبه كانت قريبة من القصر فوجدوا زنبيلين في احدهما تمر وفي الاخر

رز بقشرته ، « شلب » ولم يكن لهم عهد بالرز فتهيبوه قائلين ربما كان طعاما مسموما وتدنوا فرس في غفلة من صاحبها فقظم شيئا من الرز وحاولوا ذبح الفرس قبل ان ينتشر السم المتوهم في بدنها ثم تمهلوا عليها رفقا بصاحبها حتى اصبحت ولا بأس باد عليها وقالت لهم أحدى النسوة اللاتي معهم اني سمعت من ابي ان المسموم لا يضر بعد الطهي وبعد ان ينضج ، فوضعت الرز في مرجل واوقدت تحته وما عتمت ان كبرت وصاحت أنه يتفصص عن حبيبة حمراء وما زالت تطبخه حتى نضج وتفصى نازعا قشرته فافرغته في جفنة ، واكلوا مستمرين أكله وصر احدهم شيئا منه في كمه قائلا أخذه لولدي في الحجاز ، وكان موقع البصرة اجمة من قصب ولكن الفاتحين قلعوا القصب وغرسوا النخل وأول من غرس هو أبو بكره هذا في العهد الاسلامي والا فالنخل قديم في تلك الارجاء وهو الرفيق الاول بعد الحليب للعرب ، وان العرب على خشونتهم لم يستسيغوا ماء البصرة ولا وبالة هوائها ذلك الماء والهواء اللذين يصفهما التميمي بقوله :ـ

غير المياه المستفيضة مائها وهواء أرض الله غير هواها

وبثوا ذلك الى عمر حتى بالغوا في البث فقالوا ان البصرة من العراق بمنزلة الثانة من الجسد لا يصلها الماء حتى يفسد ، فاهتم الخليفة واحتفر نهر الاجانه وزاد في العطاء وخفف الجباية تشجيعا على الاستيطان وبقيت البصرة ردحا من الزمن كمناخه لركب من الهاجانه لا تسمع فيها

غير صلصلة السلاح وصهيل الخيل ورغاء الابل ثم ابتدأ العمران واتخذت مشتى ولكن الدافع الحقيقي كان أمرا عسكريا وهو جعلها حامية للعرب وقاطعة لظهر الفرس الذين كانوا مشتبكين مع العرب في الداخل كيلا يستمدوا باخوانهم من أهل الخوز وما جاورها . وقد يدهش القارىء سرعة النمو الحضاري العربي الذي تمثل في البصرة تلك الارض السوداء الخالية من كل مظاهر العمران حتى من الماء السائغ الذى هو مادة الحياة ، نزل العرب تلك الخربة في العقد الثاني من القرن الاول للهجرة وهم لمة من المتطوعة كل زادهم قنى وسيوف ولكن النهضة مونتهم بغالي الطموح وعالي الاهداف فلم تأت نهاية ذلك القرن الا والبصرة من أهم الاوساط العلمية والادبية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية تنوعت فيها الحركة الفكرية ووضعت المبادىء للفلسفة العربية والتصوف وعلم الجدل وجعلت العقل ميزانا حتى للعلوم اللفظية كالنحو والصرف وفقه اللغة ففي تلك القواعد والقوانين التى وضعتها لتلك العلوم اللفظية سلطة للعقل وتنظيم ، وكونت لها شخصية علمية حيث قيل هذا مذهب البصريين وهذه مقالتهم ، ان سرعة النمو الحضاري العربي يؤيد ما ذهبنا اليه من ان الزحف المقدس ما كان بحافز ديني فقط كما أنه ما كان كسبا تناله مجموعة محتاجة من مجموعة غنية انما كان ناشئا من نضج العرب وتكاملهم الذي اهلهم لحمل رسالة النمو والبلوغ الى العالم فما كان الهابطون على العراق بدوا ساقهم الحماس الديني أو الحاجة الى

الغنائم أو اظهارا للشجاعة والبطولة انما كانوا زراع مدنية وصناع حضارة حملوا البذور الصالحة الى الارض الطيبة وقد ابتكروا اساليب جديدة مستمدة من ذهنية خصبة ذات فلسفة وعمق .

وبقيت البصرة والكوفة شبه عاصمتين حتى نهضت بغداد فازالتهما عن مكانتهما وأصبحتا مدينتين من مدن المقاطعات ولم تبق لهما تلك القوة وذياك الرسوخ الذى كان لهما تجاه واسط التى اراد بها الحجاج جر الاهمية من البصرة والكوفة ولكنه فشل فلم تنزل البصرة عن عرشها ولا الكوفة لواسط الا ان بغداد تمكنت من ذلك ، وقد اعان على نزول البصرة عن شموخها حركتا الزنج والقرامطة ان أهمية البصرة من سائر الاعتبارات كانت فى العهد الاموي ولكن فى العهد العباسى تمركز كل شيء ببغداد فغطت على أهمية أرض الهند كما كان العرب يسمونها قبل الاسلام .

وكانت الابله تبعد عن البصرة مسافة أربعة فراسخ ، وكانت البصرة موغلة فى البادية وكان المربد داخلا فيها ولكن السور الذي اقامه المنصور العباسى اقتطع المربد فصار خارج البصرة الا أنه بقي المركز الحقيقي للادب والتجارة ، وكانت مساحة البصرة عند تأسيسها فرسخين فى فرسخ وقيل فى فرسخين ونشأت أولا كمجموعة من اكواخ وفى عهد الاشعري كانت بنايات من اللبن وفى عهد زياد صار الاجر بمكان اللبن وقد اعتنى زياد بالمسجد عناية كبرى ووسعه قال حارثه بن بدر :

بنى زياد لذكـــر الله مصنعـــه
بالصـــخر والجص لم يخلطه بالطين
لولا تعـاور ايدي الرافعين لـــه
اذاً ظننـاه أعمـال الشـــياطين

وبغضـون ثلاثين عامـا انتقلت البصرة من معســكر الى مدينة ، وكانت فى البصرة حركة كبيرة للمسافنه بين «المربد» وهو المحطـة البرية وبين « المقلاع » المرفأ النهـري وكانت سيراف مستودعا تجاريا على الشـاطيء الشـرقي من الخليج بمسافة خمسين فرسخا عن البصرة .

« سكان البصرة القدامى »

أولا

« النبط » وهم زراع الدلتا وسكان البطائح خاصة ويقال انهم ارامیون اطلق عليهم العرب اسم النبطيين .

ثانيـــا

« الزط » وهم قوم هبطوا من السند .

ثالثـــا

« الفرس » وليســوا بالعريقين فى جنوب العراق كمـا يتوهم البعض ثم « العرب » وهم الاخماس ومنهم اهل العالية نزلوا قديما بادية البصرة وهم أسد ومزينة وبجيله وخثعم وقريش وكل هذه القبـائل هبطت من نجد وتهامه وتســمى أهل العاليه ومن الاخماس تميم البصرة والبصرة تسمية اولا

ومن الاخماس الازد وآل عبد القيس وابناء بكر بن وائل .

وأول عمارة في البصرة كما ذكرنا الاكواخ من القصب وكانوا اذا غزوا نزعوا القصب وحزموه وعند العودة يعيدون بنائه ، وكان في وسط تلك الخصاص رحبه عرضها ٦٠ ذراعا وتلك الرحبه كانت سوق البصرة ولم تكن ملكا لاحد بل مشاعة يحوزها السابق على اللاحق طيلة يومه فاذا انقضى النهار وعادت فارغة عادت مشاعة بين المسلمين ، ثم تدرجت العمارة أما تخطيط البصرة فكان في عام ١٤ هجري خططت على نظام قبلي فكانت اخماسا لكل قبيلة مهمة حضرت البصرة وقت التخطيط ناحية وعلى مثل هذا خططت الكوفة فكانت اسباعا ، وأول دار فخمة نهضت في البصرة دار نافع بن الحارث . ودار معقل بن يسار ثم توسعت العمارة حتى بلغ عدد المنازل من دور وقصور ٧٥ ألفا ، وجددت عمارة المسجد في العهد الاموي فاتقنت ريازته وحملت له السواري من مرمر الاهواز فاصبح من ابدع الجوامع ولا تزال اثار اقاضه ماثلة يمر بها العابرون من الموفقية الى قصبة الزبير ، وبلغت مساحة المعمور من البصرة ٣٦ ميلا مربعا ومن الادلة على توسع البصرة ما جاء في حوادث عام ١٤٠ هجري ان محمد بن سليمان عامل المنصور هدم ٣٠٠٠ دارا من دور البصرة وقلع مائتي ألف نخلة عقابا للخارجين مع العلوي ابراهيم أحمر العينين وفي سنة ١٦٠ هجرية كان المسجد الجامع في البصرة يضم ٢٠٠٠٠ ألفا من المصلين وكان يحصل اصطكاك في الصفوف فوسع الجامع وصرف عليه مائة ألف

درهم ، وفي أوائل القرن الثالث تضخمت الثروة وكثرت النفوس وتوسع العمران فبلغت مساحة غرس النخيل ٥٤ فرسخا في ثلاثة فراسخ يتخللها ١٢٠٠٠ جدول ونهر وساقية متشعبة من شط العرب واحصيت السفن الواردة والصادرة فكانت ١٥٠٠٠ وبلغت ثروة أحد البصريين وهو محمد بن سليمان الواردة من املاكه يوميا ١٠٠٠٠٠ درهما ومحمد هذا أوجد معرضا للحيوان وجعل المعرض في بستان غاية في النفاسة ، وكانت النفوس قد بلغت حينذاك اكثر من مليون لان ابا جعفر المنصور بعث بمليون درهما لتوزع بين الرجال فقط فكانت اعطيه الرجل درهمين ، وبينما البصرة في زهوها اذ نجم قرن صاحب الزنج فانعكس الطالع وقد دامت تلك الفتنة المخربة ١٤ عاما لم تبق ولم تذر من عظمة البصرة ، وكان صاحب الزنج في بداية أمره قد قال لاصحابه ان البصرة خبزة نأكلها من جوانبها لانه اذا انكسر الرغيف خربت البصرة ولكن نقض رأيه فكسر الرغيف كسرا صغيرة وخرب البصرة وحرق المنازل والاسواق ووضع السيف في الناس وفي غدرة واحدة وهي أول غدرة له نادي منادية ان من اراد الامان فليحضر دار ابراهيم المهلبي واندفع الناس الى وجهة الدار حتى ملئوا الازقة فأمر بأخذ السكك والطرقات ووضع السيف فيمن حضر حتى ابادهم وذعر من بقي من البصريين فهربوا الى الضواحي وبلغ بهم الجزع مبلغه ، وذكر ابن ابي الحديد طرفا من فظايع الزنج فقال ان اختين هامتا من الجوع فاختطفهما جماعة من الزنج قطعوا

واحدة واكلوها واحتفظوا بالثانية وهي تبكي فسئلتها ممـــا تبكي اجابت انها جايعـة وان الزنج لم يسـدوا رمقها بقطعة لحم من فريستهم وانما رموا لها بالرأس وليس فيه شيء من اللحم ، وبعـد ان استقرت أيام صـاحب الزنج امن بقيـة السيوف من الاهلين وبني لهم مدينة ابي الخصيب على النهر الذي اختطه الخصيب عامل المنصـور عام ١٤٠ ، ولما نهـد الموفق العباسي لمحاربة صاحب الزنج شـرع فى بناية ممائلة لبناية الناجم سميت بالموفقية أو البصيرة وبني فيها أبو أحمد المسجد الجامع واتخذ دارا للضرب فضرب الدنانير والدراهم البصرية وجمعت هذه المدينة الحديثة كل مرافق الحياة ولما انكشفت الغمة تراجع البصريون ولكن بعد خراب البصرة وهذا هو مضرب المثل المشهور ، وقد كان ترف البصريين من أهم الاسباب لحركة الزنج اذ كان كل نابه من البصـريين وكل مترف فى حوزته العشرات من الزنوج والزنجيات ولم يكن عمل لأولئك الزنوج غير مظاهر البطر والفخفخة من حمـل السيوف المذهبة وركوب الخيل المرخته والمشى وراء سادتهم وهذا البطر أوجد فى أوساط البصـرة حركة الملوتين وكان الشامخون هم السود لا البيض ومن هنا نجم قرن صـاحب الزنج ، والى ايامنا هذه وقـد كنت عام ١٩٣٣ فى البصـرة فكانت توجـد في البصرة زاوية للنابه من الزنوج وكانت له اتاوه على زنوج البصرة وله علم يرفع يوم الخميس وتقيـم فيه زنوج البصرة العابهم ويقدمون نذورهم .

بقيت الموفقية زاهية ومن القرن الثالث بدأ الانتقال اليها

من البصرة تدريجا حتى صارت تلك البصيرة هي البصرة واندثرت الاولى ومسافة ما بينهما ١٤ كيلومترا وآخر ما بقي من محلاتها محلة العجم ومحلة بني حرام ومحلة هذيل فقط ، ولكن سباع الحيوان كانت تهاجمها وتختطف اهل تلك الخرائب وعادت البصرة ـ الخربة ـ كما كانت أولا فانتقل الناس الى البصرة الجديدة وطويت البصرة القديمة في القرن الثامن من الهجرة .

وزهت البصرة في العهد العباسي كل الزهو وفي كتاب الاغاني ما يدهش عن زهوها حيث كانت قصورها اجمل القصور وجواريها أحسن الجواري وكل نواحيها ندمان وكأس وكانت بزة البصريين رياشهم انفس وافخم وكانوا يتفاخرون بالطيلسان وغيره من فخامة المظهر وبلغت حياة اللهو والجون في البصرة اقصى ما بلغته في بلد مترف ناعم ، وبعد ان طوى بساط العباسيين تحولت النعمة عن البصرة وصارت مبائة للاحن واخذت معاول الهدم في تقويضها فكانت في عهود المغول والتاتار والصفويين والعثمانيين والزنديين متدهوره وذاقت الامرين من عشائر المنتفك وخفاجة وطي « بني لام » وكعب فوقفت الحركة الاقتصادية العظيمة وأصبحت البصرة بلد تمر وسمك ، وكثر تسيب المياه فتوافدت الامراض عليها وعادت الحياة البدوية وأصبحت خصاصا واكواخا ولعبت حوادث الصفويين والزنديين وآل أفرسياب والعثمانيين وشيوخ الجزائر والجوازر وموالي الحويزة ادوارا مريعة ، وفي هذا التاريخ ساد البصرة قوم من ربيعة يعرفون بـ «الطوال »

وبـ « آل راشـد » وكانت الامارة فى خمسـة منهم غانم بن زيد ثم مهنى بن رحمة ثم مغامس ثم محمـد بن مغامس ثم راشد بن مغامس وراشد هذا هو الذي سلم مفاتيح البصرة الى العثمانيين فى بغـداد متظاهرا بتسليم البـلاد وما كان الا مخادعا فبدهائه جعل البصرة كرة قدم تتلقفها الحوادث بين الصفويين والعثمانيين وراشد يلعب على الحبلين أما كرة لعب راشد فلم تكن الا مدينة البصرة وكردلان ، والحاوي فقط وبقية النواحي بيد المتغلبة من العشائر ، وكانت ناحية الفرات ريفـا وبادية خاضعـة للمنتفك حتى بلاد السـماوة تقريبـا ومصعده من ناحية دجلة الى موضع الكوت وبادرياد وفى هذه الناحية كانت السلطة موزعـة بين المنتفـك وبني لام وكان قسم من الجزائر تابعا لوالي الحويزة ، وفى القرن الحادي عشر للهجرة ظهرت فى تلك الانحاء أربـع امارات حكومة الدورق وحكومة القبان وحكومة الحويزة وحكومة البصـرة وفى نفس هـذا التاريـخ لعب آل افرسـياب دورهم وكان المالـكون منهم ثلاثة يحي ثم علي ثم حسين ومدة سـلطتهم سبعون عاما جاؤا أولا من الدير المشهور قرب البصرة واليـه ينسب نوع من التمر يسـمى « الديري » وخرجوا اخيرا هاربين من طريق الحويزة ، وجاء متسلم البصرة معشـوق باشا وتقدم النفوذ العثماني ينتزع السلطة من الزعماء ويشكل النظام الحكومي وهكذا تقدم النفوذ العثماني الى عهد نامق باشا وفيه تخلصت البصرة من تصرفات العشائر كما تخلصت دجلة البصرة وبقي نفوذ المنتفك فى ناحية الفرات من موضع الشرش

الى العرجه وفى العرجه هـذه المقـاربة للناصرية تأسس أول مركز للحكومة العثمانية فى المنتفك وكان فيها قائمقام وقاض ثم انتقلت الحكومـة الى سـوق الشـيوخ ثم الى الناصرية ، ونامق هذا أول من أهتم ببسـط النفوذ العثمـاني فى العراق الذي وجده اوزاعا بين الرؤساء من المنتفك وبني لام وربيعة وبني حكيم وخزاعة وزبيد والعبيـد بضم العين وغـيرهم كل يحكم جهة وبدأ ينتزع الاراضى منهم ، بدأ أولا بالمنتفك ولما اراد انتزاع اراضى بني لام الذين كانوا مادين الى بادرايا انشىء قصبة الكوت وشيد فيها دارا للحكومة ، وعندما نحي نامق عن ولاية العراق للدفعة الاولى خلفه رشيد باشا واخذ بنفس الخطة التي رسمها نامق ولكن هذا تحول الى جهـة الفرات وفرات الحلة خصوصا وان كان سلفه قد ضعضع نفوذ خزاعة وقبض على زعيمها « كريدي » وقد كان نجيب باشا الذي سبق نامق باشا نكل بهم فاستثمر رشيد باشا جهود من سبقه ولما عاد نامق باشا الى العراق ثانية تابع خطته وقضى على نفوذ بني حكيم والخزاعل وآل فشعم الذين كانوا ضاربين في نواحي كربلاء فطردهم الى بلاد المنتفك وخلص حافتي دجلة من نفوذ آل ابي محمـد وضـرب على ايدي بني لام واجلى زعيمهم « مزبان » الى الحويزة وانشىء قصبة العمارة .

وفي القرن الثالث عشـر للهجرة عادت البصـرة ميدانا للعشائر خصـوصا قبـائل كعب والمنتفك فاقام متسلم للبصرة عبدالله بك سورا على البصرة من جهة البادية ممتدا الى موقع « الدوسر » حماية للبصـرة ، وكانت حوالي البصرة قصبتا

الكويت والزبير وكانت البصرة من جهة النهر مكشوفة ومعرضة لعبث العابثين فاتفقت الحكومة مع مشيخة الزبير ومشيخة الكويت على نطارة البصرة خصوصا فى موسم التمور لقاء رسم قدره ١٥٠ كاره من التمر لكل من المشيختين والكاره عشرون قوصره والقوصره ٦٠ حقة استانه ، ولكن هاتين القبيلتين ورمت انوفهم ونفخ الشيطان فى معاطسهم فاصبحوا أشد وبالا من عادية الاعراب وكانوا يتصرفون فى حيازات الملاكين حتى صاروا أولى بها من أهلها ودامت هذه الحال الى ١٢٧٧ هجرية وفى ذلك العهد ضربت الحكومة على ايدي المفسدين وقتلت زعيمهم « فنجان » ونشأت مشيخة آل الزهير النجديين في قصبة الزبير وأولهم سليمان الزهير وانقطعت النطارة ، ولكن بقي نفوذ المشايخ واثره المحسوس الى آخر العهد العثماني وقبل السقوط كان الاثر البادي لنفوذ آل صباح ونفوذ ابن مرداو شيخ المحمره وزعيم كعب وعلى نفوذ هذين الشيخين استند السيد طالب النقيب في حركاته ضد الاتحاديين ، وكانت البصرة طيلة القرن الثالث عشر منحطة اقتصاديا وعمرانيا وصحيا فكانت مياه الفرات تتغلب عليها فتغمر الارض وتصيرها بطايح خصوصا من جهة الزبير وذلك لان انهار بز الفرات لا تستوعب الفرات الطاغي ومن جهة شط العرب كانت دجلة العوراء ، وهكذا تكون البصرة كجزيرة بين فيضين فهي دائما فى رطوبة وغمق ووباله تنتشر فيها أنواع الامراض خصوصا فى الشيء الصغار ، فكان البصريون يلوذون باولادهم الى قصبة الزبير والكويت وسوق

الشيوخ يوم كان عذبا ناشفا ولا يردونهم الا بعد ان يبلغوا أشدهم ، وفى سنة ١٢٧٧ تشكل فى البصرة مجلس اعماري وقدمت للمجلس خارطة لجزائر البطايح مع كشف تقديري للنفقات ولكن نامق باشا الذى اعقب منيب باشا الغى ذلك المشروع ، وفي عهد هداية باشا تأسست محلة العشار على شط العرب وكان يفكر بمد سكة حديدية بين العشار والبصرة ولكن لم يتحقق ذلك الحلم الطيب ، وكانت البصرة آنذاك فى تضخم بالثروة وفيها حركة فكرية وحركة اقتصادية ويجمل بنا ان لا نطوي الحديث عن البصرة بدون التنويه عن ميزة اختصت بها دون غيرها من امهات المدن العراقية وهي الروح العربية الصلبة لقد تمسكت البصرة بالروح القومي وابت الخضوع للاتراك واكبر حظ الاتراك منها انهم حسبوها من ولاياتهم ، ولم يكن استيلائهم الشكلي على البصرة الا ممالئة من حاكمها العربي راشد وضرب من المخادعة ولما انكشف لهم الامر قاموا بحملة عسكرية بقيادة ايس باشا عام ١١٥٣ هجري ولكن ما لبثوا ان انقشعوا وعادت البصرة الى عروبتها وقد تكررت الحملات التركية الفاشلة ولما عرفت البصرة بمقاومتها للاتراك صار بعض الولاة الذين يحاولون الانفصال يتعربون طمعا فى الاستقلال بالبصرة وذلك لما لمسوه من صلابة الروح القومي هناك ، وكثيرا ما لعبت اصابع السياسة فى البصرة من طريق العربية فان رجال آل افرسياب سلكوا نفس الطريق وبعثوا الشعور القومي في الادب والتقاليد وغيرها من الامور التى نوه عنها ابن معتوق فيديوانه

والكعبي في رسالته وبذلك جذبوا شيوخ الجزائر والجوازر وزعماء البادية فباسم العروبة انفصلوا عن حكومة فروق وبالحماس القومي تثبتت اقدام جنودهم فى « العليه » وهي القلعة التى اقامها علي باشا افرسياب فى موقع القرنه ، وهكذا استمر تمسك البصريين بعروبتهم ففي عام ١١٠٢ وقع الاشتباك بينهم وبين الدفتردار حسين باشا مراد وقد اندحر الباشا ، وفى عام ١١١١ وقعت الحرب بينهم وبين الوزير علي باشا ، وفي ١١١٢ جاء دالدبان مصطفى باشا وقدم لمعونته يوسف باشا الحلبي وقباد باشا حاكم العمادية ومحمد باشا والي ديار بكر وسار دالدبان بململمته هذه وكانت عدتها مائتي ألفا وبعد مناورات صالحة على البصرة شيخ المنتفك مانع فعاد الى بغداد ، وفى عام ١١٣٧ نهض شيخ المنتفك محمد بن مانع وحارب عبدالرحمن باشا ، وفي ١١٤٢ تمرد سعدون بن محمد بن مانع شيخ المنتفك وهو جد عائلة آل سعدون فحاربه سليمان باشا ، وفى ١١٥٣ عاود الحرب الشيخ سعدون مع أحمد باشا ، وفى عام ١٢٠١ ينعقد حلف ثلاثي من سليمان بك الشاوي ومن خزاعة والمنتفك على اخراج الاتراك من العراق فتقدموا من البصرة مصعدين حتى بلغوا بادرايا وكانت مركزا لحكومة العثمانيين قبل تأسيس الكوت ، وهكذا كانت البصرة مركزا للحركة العربية يوم كان النزاع حربيا كما وانها كانت مركزا للحركة العربية يوم صار النزاع سياسيا ، وقد كان مبدأ العمل العربي السياسي في العراق فى جمعيتين « العلم » و « الاصلاح » أما

جمعية العلم فهي فرع لجمعية « العهد » وكانت منحصرة في بعض الضباط العراقيين وليس لها انتساب عام في العراق وكانت قضية عسكرية ضيقة الدائرة ومركزها في الموصل ولم يكن لها هناك زعيم ولا قائد وانما كان لشريف العمري معنوية الزعامة ، أما جمعية الاصلاح في البصرة فقد تأسست على فكرة اللامركزية وكانت أقوى من جمعية الاصلاح البيروتية ، وانتشرت في العراق انتشارا هائلا واعتنقها الفراتيون ونمت بذورها على شواطيء الفرات وحملت مشعلها الطوائف المسلحة والفئة العاملة وكان المركز في البصرة مهد القضية العربية في العراق وكانت روحها منتشرة أوزاعا على اجزاء القطر ، ولكن جاءت الحرب العامة الاولى وضربت البصرة وما كان فيها من أعمال وامال وانقلبت الخطط .

ان للبصرة الماثلة منظرين جميلين فيهما جلال المظهر ودلائل العظمة وأهمية التركة الموروثة انها برية ونهرية ، فهي من الوجهة النهرية عراقية بحته حقول زراعية ونخل سحوق وواد مفعم وطرق نهرية واكواخ وخصاص ونساء مكورات الرؤوس هذى تحمل جرتها على متنها وتلك تجذف بزورقها واخرى تجمع نخيلاتها وفتيات يحز من القصب والبردي وفراخ واطفال ملطخون بالطين يتغاطسون مع الوز ويدبون مع جاذر البقر وفراخ الشاة بين الاكواخ والعرايش وبيات الحي حلقة حول حلقه صور عراقية قديمة تبرز فيها اثار كلدانية ونبطية وعربية بديع ذلك المنظر الململ وذيالك الخليط من العادات والعاديات ، واذا كان بقي شيء من معالم

النبط في العراق فانها ولا شك في جنوب البصرة وشمالها ، واعجب ما شاهدت في شط العرب وخلال تلك الحركة الصاخبة امران قديمان الاول نشيد اولئك النوتيه الذين يعملون في السفن البحرية الشراعية انهم عندما يتعاطون اعمالهم الشاقة يرتلون لتبنيه العصب والاستعانة على المتاعب نشيدا غريبا في اللهجة تكثر فيه الرطانه رغم كون عربيا فلا نشك انه بقية محفوظة من بقايا القديم للنوتيه العرب في الخليج يوم كان أسطول مازن العربي يمخر ذاك العباب ، ولذلك النشيد طابع يغلب عليه تمجيد خالق البحور ، وطلب الغوث منه والاستعانة به ويلوح عليه خشوع النوتي وهو في كنف الله تتقاذفه الامواج ويستطلع عجائب البحر ومخاوفه وتلك الرهبة التي تجلل نفوس العامة في الليل وفي البحر وفي امثالهما من مدهشات الكون .

الامر الثاني ما يمر بين آونة واخرى مصعدا أو منحدرا « بلم » عراقي قد ساب بعائلة عراقية تعيش على وجه الماء طيلة الحياة ، وذلك البلم بيتهم بل مدينتهم بل قطرهم يحمل لوازم الحياة البسيطة لتلك العائلة البسيطة ، ففي البلم سخلتهم وشاتهم ودجاجاتهم واطفالهم وقد علقوا على عود السمك الذي اصطادوه وفي زاوية ذلك البيت النهري رحى الطحن وتنور الخبز ومرجل الطبخ وبادية الاكل وحزمات الحطب مما تنبت الاجراف وغابات القصب والبردي وفي وسط ذلك البلم أبو العائلة قد جلس محنطئا الى جنب دوه من طين فيها اباريق القهوة والشاي ، ونساء تلك العائلة

ترى الحازمة منهن تقبض على دفة البلم وتزجيه والباقيات بيدهن المجاذف يسيرن البلم بتلك السواعد السمر ويتطارحن الحديث ممزوجا ببعض الحركات المغرية من غنج ودلال تلك الحركات اللاتي تعطي عملهن صبغة رقص نهري ، ومنظر البصرة من وجهة النهر يجعلها بوضعة هندسية لا توجد لغيرها من المدن العراقية لا من تلك القصور القوراء الناشرة اجنحتها على حافتي شط العرب وسط الخمائل وخلال السعفات الخضر ، وانما تلك الوضعة الهندسية هي تشعب العمارة بتشعب الانهار ان وضع البصرة يجعل لكل محلة نهرا خاصا يتخللها فيسقي البساتين والدور ، واكثر عمارات البصرة مغطاة باطراف النخيل وعذبات الشجر فهي مدينة خضراء تناغيها البلابل وتجري من تحتها الانهار هذه هي البصرة العراقية من جهة النهر ، أما البصرة العربية من جهة البرية فاذا كنت في ركب هابط الى جنوب العراق من البادية الواقعة بين البحرين وذي قار ذلك الطريق طريق المجد ومسيل الشرف ترى وأنت في وسط الدوبين تموج الرمل ولمعان الال هلالا اخضرا أو سوادا ملتفا بسعف اخضر لذلك النخل الذي يهز رأسه ملوحا لك من بعيد ، وقد قام ذلك السواد على طف الحماد واتصل ملتصقا بالجزيرة بدون ان يفصل بحرث أو نهر أو قرية زراعية حتى انك تجد اثيلات الجزيرة متلاسة ومتشاكبة بصفصاف النهر وقد عانقت شجرة الزمان وناشت عذوق التمر ، انك لتتحول فجأة من البادية الى الريف بدون تمهيد ولا ترويض ، وهناك تجابهك ثلاثة

زوايا للعمارة يطلق عليها البصرة القديمة وبجنبها مدينة الزبير وهي بلد اجرد شاحض فى السهل الفسيح كأنه حارس وقد وقف بجانبه المربد وسوف نفصل لك الحديث عن بلد الزبير وعن المربد ، والعمارة الثانية التي تلوح هي عمارة معقل الواقعة في المكان الذي كان يمر به نهر معقل والثالثة هي البصرة الحديثة وعشارها ، وتتفاوت العمارة فى الجهات الثلاث فبلد الزبير شرقي الطراز وعمارة معقل غربية الوضع أما البصرة وعشارها فشرقية غربية والاثر الشرقي فيها اظهر ، ومعقل خططت فى عهد الاحتلال البريطاني وهي بلد فاره على نشز من الارض بعيد عن بوغاء الاجراف والتبخرات المائية ذات شوارع فسح شجراء منجمة بالحدائق ومبلطة وفى كل رحبة منها تتصلب الشوارع وتنتظم دورا متباعدة وغير متحاشكة تحف بها الجنائن وتظللها العرايش ، جميل ديالك السياج الاخضر المحيط ببعض تلك الدور وهو سياج من قصب مكسوة بديباج من نبات شديد الخضرة زاه يتوارى فيه القصب ويختفي ساق النبات فلا ترى غير الورق الخضل الاخضر الممرع الكث وقد تنضد بعضه فوق بعض فقام كابدع سياج وانضره ، جميلة تلك البليدة الجديدة بعمارتها وسكانها ومرافقها ووسائط نقلها كلما فيها لامع فهي ابتسامة الثغر ، ترى مصابيحها الكهربائية تتلاءى وسط ذلك القفر الخالى كالشباح للحضارة الجديدة مبشرة بعمران ذلك الصقع الخراب فما اجمل تلك العواميد وقد اعتمرت بكور من نور قائمة على ذلك السبب ترسم الهدى والارشاد برؤسها انيرة .

أما مدينة البصرة والحديث شجون ففيها تجدد ودثور ودثورها أكثر من تجددها وقد جدت في البصرة اعمال كثيرة ، لقد كانت محاطة بالمياه المتبطحة والاهوار ولكن الحكومة الاحتلالية عملت على تجفيف المستنقعات وردم مسارب البطايح حتى أصبحت حمادا ، وكانت شوارعها رخوة نزه تكثر فيها الاوحال وتلتهب فيها الشمس بحرارة مزهقة لانها تشرق في أرض سبخة ذات ذرات ملحية فتداركت الحكومة ذلك بالتبليط ، وكان الماء فيها آجنا غير نقي لان الاهوار التي تعترض مجراه تفسد طعمه وتجعله غير سائغ وتزيد في ذلك انهار شوارع البصرة فانها مكشوفة يلوثها البشر والحيوان فاصلحت ذلك الحكومة بمصنع مائي ومصفاة حتى صار الماء العذب يوزع على الدور بواسطة قناطل وانابيب حديدية مدفونة فساغ الشراب ، وقد كان الغمق والهواء المضغوط بسعفات النخل المتحاشك والابخرة المائية المتصاعدة من الوجه البحري يجعل أكثر مساكن البصرة وغرفها قليلة التهوية تشعر الساكن بثقل التنفس وضيق الصدر ولكن المراوح الكهربائية ومكيفات الهواء خدمت البصريين من هذه الجهة أكبر خدمة ، لقد كانت الشكوى في البصرة من الماء والارض أما الماء فقد أصبح سائغا وأما الارض فقد اصلحت ، وبقيت السماء تنتظر اللطف فان الوجه البحري مؤثر عليها أشد التأثير ، ان سماء البصرة سريعة التبدل في الهبوب الذي يناوحها من هنا وهنا فهي اذا هبت شاملا تكون بعافيه واذا هبت جنوبا فمرض ووباله وقديما قالوا البصرة

الرعناء وذلك لكثرة تقلبات الطقس بخفة وبسرعة هبوب مختلف ، فالبحر من جانب والبر من جانب وجبال ايران من جانب وسباخ الاهواز ورطوبة البطايح كل ذلك مجتمع على جو البصرة .

أما الوجهة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فهبوط مريع وان شئت ان احدثك عن اسبابه فاسبابه كثيرة ومتنوعة ويمكن ارجاعها الى أمور ثلاث الامية والفقر والرغبة في التحول عن البصرة الى العشار والى معقل ، فمن عهد المغول انصرفت كل الحكومات عن الاهتمام بالبصرة ولم تتجه بتاتا الى تثقيف الذهنية البصرية بل تعمدت العكس والاضاعة خصوصا العثمانيون ، وأما الحكومات الاحتلالية فلا تفكر الا باللازم لمهمتها غير ملتفة الى ذهنية الامة أو نفسيتها وجاءت الحكومة الوطنية متأخرة فلم يتوافر لها الزمن الكافي لاصلاح ما أفسده الدهر ، أما سبب الفقر وغريب حصول الفقر في البصرة التي خصت بمائدة لا يوجد مثيلها في سائر الاطراف العراقية وهي مائدة المد تلك الحركة أو البركة التي لا تكلف الفلاح البصري أكثر من غرس الشجرة ثم اقتطاف الثمرة ، ولكن نعمة المد هذه قوبلت بنقمة مخربة وهي الروح الفاتر في البصريين تلك الروح التي نشأ منها الكسل والمواعدة لان البصري لم يتعود الكد والكدح ولا عرف المشقة وهو كريم مثل كرم شط العرب وهادىء ووديع بمقدار هدو ذلك المد المبارك ، ترى البصريين زاهين كباسقات نخيلهم مثقلين بحمولة من الادب وسجاحة الاخلاق

لهم طلاوة ولمعة مثل ورق اشجارهم الخضلة الممرعة عندما يدهمنا الندى برونق الصباح ولهجتهم اطعمت بحلاوة تمرهم ، ولكن البيئة أوجدت محيطا يرخي الاعصاب ويخثر الدم وبرغم ذلك تجد البصري هابا للطيبات لطيف المعشر عف في نفسه ولسانه ، ومائدته تغلب عليها المظاهر الجبارة وتفوح في البيت البصري روائح الطلع والبخور ولكنه قديم في عاداته وتقاليده جديد في المظهر فقط .

« البصرة والعشار »

يبدو للناظر ان البصرة قد رثت وولت ايامها فان بيوتها القديمة وان كانت لها اثار عظمة ارستقراطية وعمارة فخمة لكنها مجللة بالوحشة لقد مشى الركب الى العشار الزاهي الذي تضاحكه الطبيعة بذلك الثغر وهو راكب على اكتاف شط العرب ، أنه محلة الحركه والبصرة محلة السكون والعشار بلاد الجاليات الجديدة فيه شتى العناصر والقوميات الحية ولا تزيد عمارة البصرة القديمة اليوم على ٨٠٠ منزلا وعدى ذلك تكثر فيها الاكواخ والخصاص وقد اندثر سورها الا قليل منه ، ومساحتها ثمانية اميال مربعة وعدد نفوسها لا يتجاوز ١٥٠ ألفا في الداخل وفي الخارج ١٦٠ ألفا وكلهم عرب افحاح واكثر ما يتعاطون به غرس النخل واطلق عليهم أهل السعفة ،

وكانت قبائلها تأنف من البستنة وتستخدم لذلك جماعة من بلاد الاحساء حتى عرف ما بينهم فلاح النخل باسم

حساوي ولكنهم أخذوا يزاولون تلك المهنة ويسمون الفلاح باصدق تسمية يسمونه « تعاب » .

ويتشعب من شط العرب ٦٠٠ جدول وهذه الجداول تجعل البصرة « بندقية العراق » حيث ترى ذلك الزورق العراقي « البلم العشاري » يتهادى بمجدافه أو شراعه متنقلا بالاهلين من ملتقى الرافدين الى آخر مسكن على شط العرب وكانه الجندول الايطالي يتهادى بين بيوت البندقية ، ومن خلال السعف الحاشد تلوح لعينيك السفن الشراعية وهي تتخافق بالسعفات البيض تلك الشرع المنتشرة بين السعفات الخضر ، وتخلب اللب تلك الطوابير للبواخر البحرية المصطفة على جانبي الشط الرهيب التي يقدر الوافد منها شهريا بمائتين وخمسين باخرة ومعظم تلك البواخر من ناقلات النفط ، ويتدفق نفط البصرة على الضفة الغربية لشط العرب بمسافة ٥٠ كيلومترا حيث توجد ابار البترول حول موقعي الزبير والرميلة وهناك في دجنة الليل يتلألأ ذلك النور المندلع من افواه الابار ، وكان اكتشاف البئر الاولى حول موقع الزبير عام ١٩٤٨ والثانية حول الرميلة عام ١٩٥٢ ، وحول هذه الحقول الذهبية تتراكض الامال العراقية منتظرة الخير العميم .

يدهشني المنظر وانا على مرتفع في واجهة شط العرب اطالع مداخن تلك البواخر ومناظر السنة النار المندلعة من معامل التكرير أو من افواه الابار تلك الشعلة المنعكسة على المخازن الجبارة اللاصقة وتلك الخراطيم الممتدة من المخازن

الى البواخر ، وما ادهش تلك الميناء الصخابة بحركة الشحن وفى كل فترة تأخذ تلك الميناء بالتوسع وتجلب لهـا اللالات فتعمق وقد امتدت عليها الخطوط الحديدية لربطهـا بالعشار من جهة وبمعقل من جهـة وارتفع عـدد الارصفة من سـتة أرصفة الى تسعة ويجرى الان اعداد رصيف عاشـر وهـذه الارصفة تتسع لاستقبال تسع بواخر وبعـد تنفيذ المشـروع الجديد سوف تستقبل أربعة آخرى ، أما طول شاطيء الميناء فهو ٤٥٠٠ قدما وسوف يمتد الى ٧٠٠٠ قدما وفى الميناء ٣٠ رافعة كهربائية ثابتة و٧ رافعات متحركة على طول الميناء ، ويشتغل العامل هناك من السادسـة صباحا حتى العاشـرة مساء وتمتد مدة العمـل طول الليـل ولاجل ذلك زودت الميناء بكشافات تجعل الليل نهارا وقريب من الميناء يوجد مرفأ ممتاز ومحطة .

« مدرسة البصرة »

يمتـاز العراق بانه بلاد حضـارات متعاقبة لها آدابهـا وعلومها وفنونها من سريانيـة وكلدانية وسـومرية ويونانيـة ورومانيـة وفارسـية وعربيـة كمـا ان له اتصـالات واحتكاكا بجهـات اخرى كالهنـد والصـين ، وعنـد الفتـح ترك العرب داخـل العـراق لاهله وضبطوا المواقع العسكرية ومراكز الحكم وبقي القطر مأهولا بفرس وصابئة وهنود ورومان وفيه اديان وملل ، وكان الكثير من عليـة اولئـك الاقوام ، من رجال الحكم والديوان ومن

ذوي الاختصاص والفنون تعربوا ودمجتهم اللغة العربية الاكالة ، وكانت في العراق وقريب منه مدارس ومعاهد علمية لاؤلئك الاقوام ومن كل ذلك كان للعرب في العراق مادة أدبية ومائدة علمية لا يعوزها الا لغة ثريه والا الترجمة وقد كانتا متوافرة لنا فاللغة العربية تستوعب كل اصطلاحات تلك العلوم واسماء مفرداتها والترجمة كانت متيسرة في الحيرة والبصرة والكوفة وبغداد ، فقام عرب العراق بالواجب وقدموها أجل خدمة لدمشق ومصر والاندلس حتى اليوم والامة العربية في سائر مجالاتها العلمية والادبية والفنية تتمتع بما قدمه العراق ، واني في هذه اللمحة التاريخية لا يمكنني التوسع في ذكر سائر العلوم والاداب والفنون التي قدمتها مدارس العراق الاولى واروقته للامة العربية ، ولكني كاديب أرى ان الادب يعمر بحركتين النظم والنثر واعتقد بان الكوفة في النظم اكثر من البصرة وان البصرة ابدعت في النثر أكثر من الكوفة ، وها انا ارمز لذلك بشخصيتين ابي الطيب لمدرسة الكوفة وابي عثمان لمدرسة البصرة ، ان ابا عثمان عمرو بن بحرين محبوب الكناني الليثي البصري المعروف بالجاحظ لجحوظ عينه ولد حوالي سنة ١٦٠ للهجرة في مدينة البصرة ونشأ بها ، وقد ادرك طبقة الاصمعي وابي عبيده وابي زيد وكثيرا غيرهم وأخذ عن الجميع ولازم ابا اسحاق ابراهيم المعروف بالنظام المتكلم المعتزلي وعليه تخرج في علم الجدل وخالط الكثير من مشاهير الكتاب والمترجمين وقرأ جميع ما ترجم في أيام المنصور والرشيد والمأمون ، وكان

يكتري دكاكين الورافين ويقيم فيها دارسا ومنقبا ، اقام اكثر عمره في البصرة وكان كثير الانتجاع الى بغداد في أواخر عصر المأمون وكل عصر المعتصم والواثق وشطرا من عصر المتوكل أما الذين انتجعهم فالمأمون ووزرائه وكبار كتابه ثم انقطع الى ابن الزيات طوال وزاراته ، وكثيرا ما كان يقيم في سامراء وبعد موت ابن الزيات اقام بالبصرة الى ان افلج وبقي مفلوجا حتى مات سنة ٢٥٥ هجرية ، وكتبه تجلو صدى الاذهان منظمه أحسن تنظيم ومرصوفة أحسن رصف كناها من كلامه اجزل لفظ ، وكان اذا خاف ملل القارىء يخرج من جد الى هزل ومن حكمه الى نادره ، ويقول ابن العميد عن كتب الجاحظ انها تعلم العقل أولا والادب ثانيا ، ومن أشهر كتبه البيان والتبيين والحيوان والبخلا والمحاسن والاضداد .... هل رأيتم شيخا مهيبا كثير النسل كبير العشيرة جلس فملء صدر النادي تحوطه هالة من بنيه واحفاده الذين يربوا عددهم على الثلاثماية احتشدت من حولهم عيون العشيرة والعمد وكل عمدة يلتف به مئات من ذويه اذا تصورتم ذلك النادي الرهيب فتصوروا سيد الكتاب وامام المترسلين وشيخ البيان ابا عثمان الجاحظ ونسله مؤلفاته وما هي الا دائرة معارف تشتمل على موسوعات علمية تكبر ان يستوعبها صدر جيل من المؤلفين ، فكيف وقد استوعبها صدر مؤلف واحد وطبعها بطابعه الخاص وهو الاسلوب الجاحظي ، وانى يكون لنهضتنا الادبية اليوم ذلك الاسلوب الزاهي بروعته وبراعته أما عشيرته فمختلف المصنفات وضروب الابانات من

منتجات الاذهان تلك المؤلفات الحاشـدة على رفوف مكتبته ، ان ذلك الشـيخ البصري الذي اسدى للعروبة أكبر خدمة كان غاية في حبه للكتب وجمعها لم يقع في يده كتاب الا استوفاه وكان قلمه لا يفي برغبته في الاستنساخ فاتخذ وراقا لنفسه واتخذ نساخا وجاءت زبدة مخضة تلك المؤلفات الحية ألف عام تجد اداب وتدثر وهي حيـة غضه يتنافس فيها جهابذة العلم وغوات الادب ويبلغ تطلبهم لها حد الاغراب ، هذا ابن الاخشـيد وهو رأس من رؤس المعرفة قـد جمـع كل اثار الجاحظ وعز عليـه الحصـول على كتـاب الفرق بين النبي والمتنبي فبث دعاته في اطراف البـلاد ولمـا اسـتيأس اراد ان يسئل الناس جميعـا فانتظر موسم الحج وشخص بنفسه الى أم القرى واقام مناديه في ترابيع عرفات حيث يحتشد الناس من الافاق ينشد عن ذلك الكتاب المفقود ، وحق لكتب الجاحظ ذلك الاهتمـام انها أكبر جامعـة للعلم والادب ترى في تلك الجامعة حلقـة الفقيه الى جماعة المحدث الى مجلس اللغوي الى سارية النسابة الى دارة المتكلم الى معهد المنطقي الى مجمع الفلسفي الى محفل الاديب الى ندوة المتندر والمجان ان هـذه اللجنة الادبية اغنت الجاحظ عن كلما تتطلبه الانفس وتلذه الاعين وجعلته متبتلا لم يتخذ زوجة ولا كان له ولد قد انقطع الى صومعة كتبه قرابة ماية عام وهو يتفنن ويأتي بالاوابد حتى انهدمت عليه تلك الصومعة ورقد رقدته الابدية تحت نضداتها فقد قيل ان ذلك الهم الزمن المفلوج كان في آخر ايامه شقا مائلا ولعابا سائلا كما وصف نفسـه قـد طرحه المرض في

مكتبته فانهدمت عليه رضخة من كتبه اجهزت عليه فمات بل نام ولم يمت .

كان أبو عثمان ابن البصرة حقا وكانت البصرية بادية عليه بكل خصائصها ولما كان للبصرة منظران جميلان متعانقان العروبة البدوية والعراقية الحضرية كانت أدبية الجاحظ تتألف من ناحيتين عامرتين العربية والريفية تراه ريفيا فى كتبه الزرع والنخيل والاعناب ومفاخرة السمك وتراه أدبيا عربيا فى كتبه القحطانية والعدنانية والعرب والموالي والفرق بين هاشم وعبد شحن وتراه عراقيا فى كتبه الاوقاف وخلق القرآن والاعتزال والوعد والوعيد ، يقول صاحب النثر الفني ان الجاحظ لم يكن غريبا فى مزاجه واخلاقه وتركيبه النفسى عن البيئة التى نشأ فيها فهي مصوره فى ذاته وفى شخصيته كما هي مصوره فى كتبه ورسائله ، كانت البصرة اسبق من الكوفة فيالعلم الذي توسعت فيه برسوخ واتقان ولكن غض من شأن البصريين وزوى مكانتهم الاتجاه السياسى فقد تعمدت السياسة العباسية اظهار الكوفة ونشر علمها وتعهدت علمائها بسائر أسباب التنويه لان الكوفيين أقرب الى مبدأ العباسيين ولان البصرة كانت عثمانية ، لهذا بقيت النهضة العلمية البصرية منكمشة عن العاصمة والحقيقة ان العاصمة منكمشة عنها الى كارثة صاحب الزنج فان ما حصل من الوقايع الكبرى فى البصرة والبصريين نثر السبحة وتفرق الشمل وصعدت طائفة من حملة العلم الى بغداد فانتشرت كثير من الاراء البصرية وكتبهم وهنا عرفت المدرسة البغدادية مبلغ الاداب

البصرية ، لقد بلغت الحركة الفكرية فى البصرة من التوسع فى الانتاج العلمي ما نوه به التاريخ فقد ذكر ان الخليفة العباسى فى أوائل القرن الرابع للهجرة أمر عامله فى البصرة ان يحصى علماء مدرسة البصرة والمختار من مؤلفاتهم فكتب له عن وجود سبعماية مدرس وعشرة الاف طالب ومائتي ألف مجلد بصرى ، وقد شحنت كثير من الكتب بالسفن مصعدة من البصرة الى بغداد وقد حمل أبو الفضل العباس بن الحسين أحد قواد الجيش خمسة عشر الف مجلده من نفائس الكتب مصعدا بها الى بغداد وفى عام ٤٨٣ أحرق بنو المتفك وربيعة خمسين ألف مجلده من نوادر الكتب التى اوقفها ابن بقا ، والبصريون كانوا قبل الكوفيين رواة للغة وواضعي ادابها وكثيرا ما كانوا يركبون البادية ويتسقطون على اخبار العرب ويلتقطون اشعارهم ونوادرهم ووقايعهم ويعودون بجر الحقائب ، وأخيرا صار فصحاء عرب الجزيرة يتوافدون على البصرة ومربدها تخفيفا على الرواة ولكن الراوي البصري لا يقنعه حتى يدور الجزيرة ويغرف من المنهل .

« أسلوب الجاحظ »

كان النبوغ هو المبدأ الاصيل لثقافة الجاحظ كما ان أسلوبه بتكراره وتهكمه ولفتاته الحبية جمع عناصر الابداع الذي اختص به ، وقد اعان على خصب ذهنيته ما جلبته الثقافة الفارسية والهندية التى تزود منها بنهمة واشباع كما وزودته

بغداد بالثقافة اليونانية ، هذه الثقافات المجلوبة صبغت نتاجه بالوان زاهية الا انها لم تكن السر في شخصيته الادبية بل ان ومضات تفكيره اللامع الساطع وشمه روائح العبقرية هو هو المادة لذلك النبوغ ، أما تلك الثقافات فروافد وان الاصلية الادبية للجاحظ مستمدة من الاوساط البصرية فكانت هي السر وهي التي رفعته الى طبقات اصحاب الكفاءات ، لقد تمون من خصائص الوسط البصري وصفايا ذلك الوسط الزاخر بعلوم اللغة وادابها وعلوم القرآن والحديث والتصوف والشعر والخطابة والرواية وما في ذلك الوسط من الاحتكاك الذهني من بحث جدل مشاربين المذاهب المعتزلة والاشاعرة والعثمانية والشيعة والخوارج والشعوبية ، لقد تمرس ما شاء له التمرس على ذلك الوسط وما فيه من حياة اجتماعية واقتصادية واخلاق عامة كما تمرس على المربد وظهرت معجزته في النثر الفني فكان لا يباري في ذلك النثر الذى زاحم دولة الشعر وازالها عن مقامها الاول في الادب العربي ، وان كانت لذلك النثر الفني بداية عجمية زحف برايتها ابن المقفع ومن نسج على منواله ولكن الفتح كان للجاحظ ولبصريته فان رصف الجاحظ لا يجاريه رصف وصوغه اجمل من كل صوغ وان الكسوه التي يتباهى بها أسلوب الجاحظ تعري كل أسلوب عن بهائه فلاسلوب الجاحظ شخصية انفرد بها عن من تقدم ومن تأخر ، ان للجاحظ أسلوبه بطابع خاص عرفه الادباء وعنونوه بالطريقة الجاحظية وهي حشد في المعنى وتسلسل في الافكار بالفاظ

فربة بعيدة سهلة ممتعة لها طرافتها وجزالتها فى ديباجة مفوفه تراها تتمسك باوهى الاسباب ولكنها تتلاعب بالالباب فى استطراد واسترسال وتنقل تحسبه توثبا من حال الى حال تقرأ ذلك الاستطراد والاسترسال والكر والفر فتحسبه تكرارا واسرافا وتكاد تعتقد ان الجاحظ لا يكتب بالمساوات ولكن ذلك تسرعا منك فى الحكم يؤل الى خيبة فى الظن ويكشف عن قلة تعرف باسلوب الجاحظ أسلوب الروايع والبدايع ، ان ذلك التحول أو التجول هو حاشية الطراز وخيوط الوشى وخطوط التحبير تلك هى جوهرة الجاحظ المتلألئة أو روحه المرحة فى كل فقرة من ذلك الترسل وذاك هو توقيعه تحت كل كلمة وهي هي طرفة الجاحظ وضرافته ، وكم حاول بعض الاعلام تلخيص كتب الجاحظ واذا بالملحة الرايعة تتلاشى واللطيفة الجاحظية تفرق فراق الروح للجسد ، لقد تسرع البعض فى الحكم على أسلوب الجاحظ ولما يعرفوا دقائق المعنى وخصائص الوضع لذلك المعنى فاللغة العربية ثريه واسعة قد وضعت لكل خصوصية من الخصوصات لفظا خاصا تراه مترادفا وليس بمترادف فاذا حاول الكاتب البليغ ان يستوعب المعنى ويلمه من كل اطرافه ليأتي به كاملا سلك مسلك الجاحظ فى أسلوبه البديع .

ومن مزايا الجاحظ كثرة التندر فانه لا يترك الملحة ولا تفوته النكتة ولو كانت لاذعة ، وفى بعض الرسائل تعلو أسلوبه السخرية والاستحفاف كلم بارد ولكن حشوه الجمر وجمل هازله ولكن ملئها الجد طرافه فى الاسئلة

واقتان فى الاجوية ، لقد ابتدع فى الاسلوب العربي تلك الطريقة الساخرة الساحرة التى جاءت فى رسالته « التدوير والتربيع » تلك الرسالة الفريدة فى الذوق والفن والادب وقد تحداها بعض الكتاب وترسموا خطاه فى اغراضها ولكن ضلعوا ولم يلحقوا ، لقد وضع الخوارزمي رسالة على منوالها ووضع أحمد بن فارس رسالة « أصول المقامات » وتبعه البديع الهمداني والحريري وابن زيدون ولكن جميعهم طلعوا ولم يسطلعوا .

وكانت رسالة الجاحظ فى الادب تتألف من ناحيتين انقلاب فى المنهج وتوسع فى المعارف أما الانقلاب فى المنهج فقد كان المنهاج الادبى جمع أقوال العرب واشعارهم واخبارهم وأمثالهم وكان الغرض منه ما يفسر القرآن ، والحديث وضبط الالفاظ وتفهم الاساليب ، ادب جاف توقيفي سماعي لا يقبل القياس ولا التصرف ولكن الجاحظ جعل المنهاج تدبر تلك الروايات والبناء عليها والاستنتاج منها حتى صير الادب العربى صناعة علمية وفنا من الفنون .

أما التوسيع للمعارف العربية فقدوضع ثلثماية وستين مؤلفا فى شتى العلوم ومختلف المقاصد كل هذه المؤلفات رواها ابن الجوزى ولم يستهدف الجاحظ فى هذا العمل الجبار الا تموين الادب العربى بالمعرفة الشاملة حتى يكون وحدة بذاته ، ومن جهة اخرى يلتمس اطلاق الفكر العربي ويحاول افلات الطائر فى فضاء واسع يتنقل ويتقلب فيه بحرية وقد نجح فشاعت الفلسفة وكثر التسامح ونشىء الفكر

الحر ، ومن توسيعه للمعارف العربية نقله ما راقه من الادب الفارسي لقد وجد « آينة الفرس » أى مرأتهم فاحب ان يجعل « آينة للعرب » فوضع كتاب « التاج » وقد رأينا الجاحظ في تاجه بينما هو يشاهد اكابر الملوك والامراء في الحفلات الرسمية وحشودهم في الاجتماعات العامة وما هنالك من مراسيم وترتيبات رسمية ونظام بلاط يستعرض كل ذلك في المرأة الفارسية ، ولكن تجذبه النعرة العربية فيعقب فيها بما يماثل مما كان قد وقع للعرب قبل الاسلام وبعد الاسلام.

ومن توسيع الجاحظ المنهاج ذلك البحث الطريف في طبايع الحيوان والنبات والمعادن وما تجشم في تلك البحوث حتى جاء بذلك التحقيق العلمي والمفخرة الخالدة «كتاب الحيوان» لقد توسع شيخ الادب فلم يدع واديا الا وله فيه ورده انصب يؤلف أما رسائل جامعة أو سفرا متعدد الصفحات ولكن كل صفحة منها وحدة مستقلة وأما على حده ، ومن رغبته في توسيع المعارف أنه كان في بداية عهده يضع الكتب النافعة ويغفلها عن اسمه بل ينسبها الى مشاهير الكتاب حتى يحصل عليها الاقبال فتدرس لتتوسع وتنتشر المعرفة .

« فلسفة الجاحظ »

في كل حين من الدهر تطغى موجة من البشر متبلجه في نواحي المعمورة تجرى سواقيها وتتدفق انهارها في تجاهات عديدة وشعاب شتى ويحصل من ذلك تعارف وامتزاج بين الامم ويتكشف بعضها لبعض ويتعرف قوم على آخرين

وتنسكب حضارة في حضارة وتحتك عقول بعقول وتتلاقح مواهب من مواهب ويتمخض ذلك الاختلاط فالائتلاف والتعارف ويتكون مما لابد من تكونه فلسفة جديدة وعلم وأدب وفن ، تعرف ذلك من موجة الاسكندر وفيضان روما وما حصل لليونان والرومان من فلسفة وعلوم ، ركدت الموجة ولكن التاريخ لم يركد فطغت موجة العروبة وغشيت من غشيت من الامم والشعوب التى تجمعت تحت اللواء العربي وحاولت رجالات العرب ان تمتزج تلك الاشتات ويلغى ما بينها من فروق فطلع على العالم الفن والعلم والفلسفة العربية المستقلة ، ركدت الموجة ولكن التاريخ لم يركد ففاض شيء من الشرق على الغرب بعودة الفلول من الحرب الصليبية والتجيء اساتذة مدرسة الاندلس الى نواحي الغرب وهاجر من هاجر من القسطنطينية على أثر الانتصارات العثمانية الامور التى جعلت الغرب يستوعب ما فى الشرق من نتاج ذهني وذخائر فكرية مصقولة مهذبة فنتج هذا الادب الجديد وهذا العلم المدهش ، ولكن هذا التطور الفكرى لا يحصل بسرعة ولا يكون صهر السبيكة فى جيل أو في جيلين بل لا يتم ذلك الا بقرون وتساهم فيه ادمغة عدة ويتساعد عليه كثير من النوابغ فتنهض البناية قوراء كاملة المرافق ، ويأتي الموفق فيجلس فى صدرها ويعلق لوحته على الباب ولكن السابقين الاولين يشاركون فى تلك البناية ويمتلكون أكثر نواحيها فهم دائما اركان المجلس وان لم يشاهدوا فى

المجلس ، وعلى هذا التمهيد يكون الجاحظ ركن من أركان الفلسفة العربية المستقلة واليك التفصيل •

لقد كان لانصباب الموجة العربية فى شتى النواحي من حقول العلم والادب والفلسفة وتقدم اللواء العربي وزحفه بسرعة على حضارات ومدينات وبتلك الحركة العنيفة اختلطنا بشعوب متعددة وبمختلف من الاقوام التى تعرف بعضها على بعض وانهمكنا فى زيادة المعرفة حتى تكشفت لنا النفسية والذهنية من الروم والفرس والاقباط والاسبان وكانت اللغة العربية تقوم بسفارتها وتترجم ما بينهم وبين العرب من صلات نفسية وذهنية ، وحرص كل شعب من تلك الشعوب على ان يكون له الاثر الظاهر فى اداب العرب ، وقد كان العرب انفسهم أشد حرصا على أن يكون للغتهم المظهر الجليل والحصيلة الكثيرة بين تلك الحضارات والمدنيات فكثرت الترجمة وكثر الدرس والشرح والتفسير وتأثرت بهذا وبغيره الحياة العقلية عند العرب وبدأت تتفتح الذهنية للفلسفة والعلوم ، وربما كان مبدأ الحركة الفكرية التى عليها لمحة من الفلسفة العربية هي حركة بعض الفرق الاسلامية وتلك الذهنية التى تأثرت بها ثم اتسعت الخطى فجاء دور المعتزلة طلاب الحرية الفكرية واصحاب المباحث العقلية ، وهكذا تدرجت المبادىء عند العرب حتى نضجت الفلسفة العربية المستقلة وظهر مفكرون لا يصطبغ تفكيرهم بصبغة الدين ولا بلون الفلسفة الاجنبية برغم ما ابتدأت به من مظهر الدين ومظهر الذهنية الهندية أو اليونانية أو الفارسية ولكن سرعان

ما نزعت الثوب المستعار وتكاملت حكمة وفلسفة عربية وجاء دور الكندي وابن رشد وغيرهما من فلاسفة العرب المستقلين

اذا اعرفت هذا وعرفت ان الجاحظ من ائمة المعتزلة وان له طريقة تعرف بـ « الجاحظية » عند ذلك تعرف ان الجاحظ فيلسوف من فلاسفة العرب شارك وساهم وتحمل السجن وغضب الولاة كما أنه تجشم الاسفار وارتاد الاقطار ، وكان الجاحظ ميسر الحال سأله ميمون بن هرون الك صنيعة فى البصرة فابتسم وقال اهديت كتاب الحيوان لابن الزيات فاجازني بخمسة الاف دينارا واهديت كتاب البيان والتبين لاحمد بن داود فاجازني بخمسة الاف دينارا واهديت كتاب الزرع والنخيل لابراهيم بن العباس . فاجازني بخمسة الاف دينارا وانصرفت الى البصرة ومعي صنيعة لا تحتاج الى تجديد أو تسميد .

« الزبير بلدا ومشهدا »

لقد سبرت البصرة من سائر نواحيها وبقيت ناحية الزبير فلابد من الوقوف عليها ، ان مشهد الزبير قديم وربما يتصل بعهد البصرة القديمة ذكره كثير من الرواد وقد وقفت عليه عام ١٩٢١ فكان حائطا فى رحبة من الارض لا يلاصقه شيء من عمارة الاهلين وارتفاعه يتفاوت فمن جهة القبلة ما يلي السرحة والحرم ١٣ ذراعا ومن جهة الرحبة والشرق ٩ اذرع وله ستة أبواب والداخل اليه يشاهد بهوا واسعا وفى زاوية البهو مما يلي جهة القبلة قبة بيضاء معقودة على ضريح

الزبير بارتفاع ١٥ مترا وعلى الضريح مصطبة بارتفاع مترين يحيط بها شباك خشبي مستطيل ارتفاعه ٣ أمتار فالمشهد حجره في جامع يشتمل على حرم وسرحة والحرم يتكون من ٦ صفوف مستطيلة كل صف ٢٣ مترا ويتخلل تلك الصفوف سوار من الطاباق ومجموعها ٦ سوار لكل صف ومعقود على تلك السواري اسطوانات من الطاباق أما السرحة فهي عبارة عن صفين طول كل صف ٣٠ مترا معتمدة على سوار معقود عليها سقف خشبي وفي الجامع مأذنة ارتفاعها ٢٢ مترا تقريبا وفيه بئر عمقها ٢٢ مترا ، ويظهر ان أرض الجامع كانت واطئة بمقدار ٥ زلف وقد جددت عمارة المشهد مرارا وشاهدت على باب الحجرة صخرة رقش عليها هذه بناية السلطان سليم بن سليمان في سنة ٩٤٣ هجرية .

« بلد الزبير »

على طف الحماد من الجزيرة في ظهر البصرة تلوح للوافد عمارة فيها مساكن واسواق وهي على بساطتها طيبة المناخ وموقعها الهندسي موقع برج مطل على البصرة المغمورة بالنخل الكثف ولكن مدينة الزبير معرات مكشوفة وربما وجدت في ضواحيهابعض شجرات الاثل التي توجد في المهابط العربية ، وهذا العراء اكسب البلد فروقا محسوسة بين مناخها ومناخ البصرة فبينما ترى السايح مغموسا في طبقات كثيفة من هواء البصرة المضغوط بسعفات النخيل التي عقدت رواقها المظلم على جو البصرة وبوخامة ووباله من البخار المائي الذي

تصعده البطايح والمناقع ومن الوجه البحري ،تراه وقد زهق من البصرة الى برية الزبير كروح تخلصت من كثافة الجسد وفاضت سابحة في الفضاء النقي حيث الرملة الذهبية والنسيم الطلق بعذوبة وجفاف وحيث النور الوهاج الصافي ، انك لا تكاد تولي وجهك شطر بلد الزبير خارجا من مدينة البصرة الا وتشعر بانك قد تخلصت من المرض الى العافية ، ويشاهد الوافد جواداً فسيحه تتخللها رحب فارهة ومساكن ذات طابق واحد على الاغلب وقد ركبت تلك المساكن البيض على حافتي واد من تلك الشوارع المنحدرة وقد كان مبدأ العمارة خصاصا واكواخا يأوي اليها الزوار والهلاك من الذين يفضلون الهجرة انقباضا عن الناس واعتزالا عن لوث المدينة ، واكثر المجاورين الاول كان من العبيد الذين يكثرون في جزيرة العرب ومرابضها .

وعلى أثر الحوادث الوهابية في أوائل القرن الثالث عشر للهجرة تغير الوضع تغيرا فجائيا وذلك لامرين مهمين، أولهما أن كثيرا من النجديين الذين يخلدون الى الدعة ويحبون العافية أتخذ مشهد الزبير دار هجرة فشيدوا المساكن والبيوت وتدرجت العمارة حول ذلك المشهد ، والامر الثاني ان الخلافة العثمانية حسبت حساب الوهابيين وخافت زحفهم على البصرة فرأت ان تجعل من بلد الزبير حصنا في ظهر البصرة فطوقت البلد بسور متين وعينت عاملا واقطعته اقطاعية زراعية تسمى « تنومه » ولكن لم يكن لذلك العامل أي نفوذ وبقيت الادارة على قواعد المشيخة ، ومثلما كانت بلد

الزبير منحازة عن البلدان العراقيـة كذلك كانت منحازة فى اخلاقها وعاداتها ومحافظة على مزاياها الفاضلة وزيها العربى، انك عنـدما تقطع المسافة الهينة بين مدينتي البصرة والزبير تحسب بانك قفزت قفزة فى التاريخ الى ما وراء قرون فهذه القصبة قصبة سلفية وأهلهـا سلفيون وكأن السـلف العربى المجيد مائل بجميع اطواره ومظاهره .

وتاريخ تشييد السور عام ١٢١٧ للهجرة والقائم عليـه الشيخ ابراهيم الذى شخص الى بغداد يستمد عون والي بغداد على ذلك التشييد ليكون صدا لوجه الوهابيين ، أما سكان بلد الزبير فينقسمون الى فرقتين القبائل ومنهم الشيوخ وهم علية القوم وبنو « خضير » وهم السواد المختلطة انسابهم واشـهر بيت فى بلد الزبير بيت آل ابراهيم وفيهم الزعامـة والنابغون فى هذه العائلة الكريمة أربعة الشيخ ابراهيم والشيخ محمد والشيخ أحمد والشيخ فهد وهم من عشيرة « عنزه » هبطوا هذه المدينة فى بداية عهدها وتاريخ مشيختهم يعد أكثر من ٢٠٠ عاما وقد تخللت هذه المدة كثير من الحوادث .

وقد نزلت على هـذا البيت الـكريم عام ١٩٢١ للميلاد وكان معي عدد من علية آل سعدون ويتفق لي ان أشاهد أكبر ظاهرة عربية لمست منها طيب الخلال وجلال المزايا ، لقـــد خرجت للطواف والوقوف على بعض الآثار والتزود بالمعرفة من ضـواحي ذلك البلد الطيب وكان معي الشـيخ محسن امام جامع الزبير ولما حضر وقت صلواة الظهر تركني وذهب الى حانوته ليبسط بساطه ويعرض بضاعته وهى الصلاة

جماعة ومن هنا عرفت أنه قد حان وقت تناول وجبة الغذاء واشفقت ان يتأخر الرفاق فعدت الى القصر ولكني اخطئت الطريق واصادف عابر طريق فسئلته عن الدرب الموصل الى قصر الشيوخ فاجابني بلفظ ولهجة عذبة لقد وصلت ولكنه انتهى بي الى بيت لم يكن القصر المطلوب وطرق الباب فقلت ليس هذا قصر الشيوخ فقال نعم أرجو ان تتمهل علي قليلا وعندما فتح الباب قال لمن فتحه اسرع باحضار الميسور من الطعام فانكمشت من هذه المفاجئة وقلت أيها الكريم اني ضيف الشيوخ ومعي رفقه من كرام الناس فلا يسوغ الادب العربي ان اتناول الغذاء وهم بانتظاري ، قبح ذلك ، فاجاب برفق وتصميم لابد من ان تتناول شيئا من طعامي ثم نذهب الى بيت الشيوخ ولا عاب عليك ، ومد المائدة فلم أجد مناصا من تناول شيء وبعد ذلك قال الكريم هيا واتى بي الى الشيوخ وقد وجدتهم بانتظاري وقبل ان اعتذر ابتدرني الشيخ قائلا هل جذبك الى بيته لا بأس انها عادة أهل هذا البلد ، الضيف عند أحدهم هو ضيف عند الجميع وجلسنا على المائدة ومعنا الدليل الكريم .

« الابلة أو اوبولا »

انها البلد الفارسي المهم الذي كان يسند البصرة الفارسية وفيه وقعت المعركة الفاصلة بين الفرس والعرب ، وقد ذكر الابلة الرحالة ناصر خسرو في رحلته عام ٤٤٣ للهجرة وقال انها قائمة على النهر المسمى باسمها مدينة عامرة وقد

كانت الابلة الاصلية على الجانب الشمالي للنهر واليوم يوجد على الجانب الجنوبي من النهر عمارات مهمة تكثر فيها الشوارع والمساجد والاربطة والاسواق والابنية الكبيرة ما لا يوجد أحسن منه في العالم وكان هذا الجانب الجنوبي يسمى شط عثمان أما شط العرب فيقع شرقي الابلة ومعظم المدينة في الجنوب انتهى ما اردت نقله .

ولا أعرف اليوم تماما موقع الابلة وبعض البصريين يزعمون أنه « الخورة » .

« المربد ومنبره »

ان موقع المربد اليوم حسبما يعتقد البصريون بين الموضع المعروف « بمصلي العيد » ومقبرة حسن البصري قبالة قصبة الزبير ، وقد كان ضاحية فارهة من ضواحي البصرة القديمة ويبعد عنها ما يقارب الثلاثة أميال وهو في الجهة الغربية منها مما يلي البادية ، لقد كان مؤتمرا للشعر والادب واكاديمية للتفاخر بالبيان والبلاغة والتصوير الادبي وكان سوقا للتجارة خصوصا لتجارة الابل وهذا هو سر تسميته بالمربد ثم خطر شأنه بعد تخطيط البصرة فصار مركزا للدعاوه والسياسة ومنبرا عاليا للنشر ثم ناديا كبيرا للادب ثم مدرسة للغة العربية يقطنها فصحاء الجزيرة الذين هبطوا الى البصرة واقاموا بالمربد محاضرين وان شئت فقل متاجرين بالبضاعة الادبية من اخبار ووقايع وقصائد ورجز وقصص وأمثال وحكم فمن عصماء الى علواء الى ملح ونوادر ، كان المربد باب

الجزيرة العرب ومدخلا للبصرة وكان عرب البصرة ممن يستثقل هوائها ويكره ذلك التحاشك في بنائها يبنون في المربد بيوتا فارهة وصارت عماراتهم متنزها للبصريين الذين يزهقون من البصرة طلبا لانتشاق هواء البرية ومد البصر في افق البادية الفسيح ، وقد اتسعت العمارة بين البصرة والمربد حتى القرن السابع للهجرة وفيه خرب ما بين المربد والبصرة وبقي المربد كمدينة صغيرة مستقلة ، وكانت العرب تقول العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق والمربد عين البصرة ، المربد مدرسة مهدت للحضارة واداب الحضارة على أقوى أساس وأحسن تمهيد ان البحث واثار البحث تصرح بان المربد كان قبل الاسلام ولا يمكنني التحديد بالضبط الا أنه ورث عكاظا وبقي الى القرن السابع للهجرة كما ينوه بذلك ما ذكره الحموي في معجم البلدان وان هذه السوق فقدت أهميتها الاقتصادية بعد الفتح الاسلامي لان العرب اتصلوا بالمدن الكبرى فتحولت اليها صادراتها وواردتها ولكن بقيت للمربد بضاعته الذهنية الادبية ، واذا كان لعكاظ فضل الاتجاه لتوحيد اللغة وتوحيد الاتجاه الادبي فللمربد الفضل في تثبت اللغة العربية وضبطها بعد ان كثر الاختلاط بالاعاجم حتى امكن ان يقال ان المنبر العربي في المربد كان أهم من المنبر الادبي في عكاظ ، واذا كان لعكاظ ما كان من الامتيازات عند العرب فللمربد أهميته وامتيازه بالمنبر السياسي والمنبر العلمي اذ أصبح المربد معرضا لاراء الاحزاب في بلاد العرب وتزاحمت فيه المذاهب للخوارج والعثمانية وللشيعة

وأهل السنة وللمعتزلة والاشاعرة ، أنه قد وجدت فيه الوان للادب العربي لم تكن ادركتها عكاظ ففي المربد اضافة الى الادب الجاهلي أدب المخضرمين وادب المولدين ، وفي زمن المربد الاخير احتاج الناس الى مدرسة لاداب اللغة العربية تحافظ على المزايا من الضياع في ذلك العهد المخلوط بالفارسية والهندية فكان المربد المتصل بادباء البادية يؤدي هذه المهمة .

والمربد يوم كان داخل البصرة أو يوم فصله المنصور ما كان الا سوق واسعة للقوافل المستوردة والمصدرة أنواعا من الاموال التجارية وزاد عليها ان كان مركزا ثقافيا تباع فيه باغلى الاثمان البضاعة الادبية ، وفي هذا الوسط كان الشعراء يتساجلون على مشهد من ذواق الادب وعشاق الذين كانوا يتجمهون تحت سقف من العجاج ذلك العجاج الذي تثيره دواب القوافل حتى ان أحد الشعراء وصف المقام بقوله :

ومربدها المذري علينا ترابه
اذا سجحت ابغالها وحميرها
فتضحى بها غبر الرؤس كاننا
اناسي موتى قد نبشن قبورها

وفي حوادث صاحب الزنج احترق المربد وطلب الى شاعة البصرة ابي الحصين ان يسجل ذلك شعرا فقال :

اتتكم شهود الهوى تشهد
فما تستطيعون ان تجحدوا

ايا مربديـــون ناشـــــدتكم
عـلى انني معـــكم مجهـــد
جرى نفســـي صـــاعدا نحوكم
فمـــن أجـــله احترق المربـــد
وهـــاجت ريـاح حنيني لـــكم
فضـــلت بهـــا ناركم توقـــد
ولـولا دموعي جرت لـــم يكن
حريقـــكم ابـــدا يخمـــد

الكوفـــــة

« مدينـــة وكورة »

الـكورة :

توجد اصـطلاحات للتقـسيمات الادارية والمالية تختلف باختلاف الحكومات ، لقد كانت فى العهـد الساساني استانات تنقسـم الى طسوح تنقسم الى رسـاتيق وكانت كورة الـكوفة آنذاك ، تشتمل عى طسوج ثلاث ولما جاء العرب بقيت الوضعة على هذا التقـسيم ولكن صار الاسم سـواد الكوفة ، وعنـدما انتظمت الادارة العربية صار الاسم عمل الكوفة ، أما تحديد تلك الطسـوج الثلاث فقد ذكر المصعبي فى تعليقه على خطط الكوفة للمستشـرق ماسنيـون انها كانت تشـمل ما نسـميه باصطلاحنا الاداري اليوم قضائي الرمادي والفلوجة من لواء

الرمادي وكافة لوائي الحلة وكربلاء وقضائي الشامية وأبو صخير من لواء الديوانية هذه هي كورة الكوفة .

أما المدينة :

فقد قيل انها نشأت وتأسست عام ١٧ وقيل انها نهضت على أرض لم تسبق بعمارة وقيل نهضت على انقاض مدينة فارسية سبقتها كما ذكر القزويني في نزهة القلوب ، ولعلها مدينة « سورستان » وقيل على انقاض عاقولا وهي قرية ارامية كانت بمكان الكوفة أو قريبا منها وكيفما كان فلا يشك الواقف على ما هنالك من اثار انها قامت على جانب من الحيرة ، فان المنكشف من اثار الحرث والعمارة والديارات والقصور والقبور يدل على وحدة الحيرة والكوفة والنجف ، وقد قامت تلك الوحدة على خد العذراء وعلى الموضع المعروف باللسان وعرب الكوفة كانت تقول ادلع البر لسانه في الريف ، والى اليوم والنجفيون يذكرون اللسان بجنب النجف وهو لسان الرمل اليابس ما بين الحيرة والنجف من جهة البادية .

لقد مصرت الكوفة وتكاملت مدينة اكواخ في خمس سنوات وفي عهد المغيرة نهضت جدران من اللبن تقبعها خيام ومضارب بصورة ثابتة وعلى عهد زياد شيدت بالاجر وأول ما شيد بالاجر أبواب الدور وأول دور نهضت من هذا النوع كانت في شارع كنده محلة المتنبي ، وقد خططت الكوفة من جانبين شرقي الجامع وغربيه والجانب الشرقي افضل لانه أقرب الى الماء وكان لليمانيين الذين كانوا أولا يعدون

١٢٠٠٠ والجانب الغربي كان للنزاريين وكانوا يعدون ٨٠٠٠ ، وكان التخطيط فى الكوفة موزعا توزيعا عسكريا أو توزيعا قبليا يتألف من سبعة أفواج كل فوج يضم قسما من محلاتها المعروفة باسم قبائلها ولم يكن لها اول التعمير شوارع بل كانت منهاج والمنهج هو الطريق الذى يكون بين اطناب الخيم المضروبة صفوفا ، وكانت عمارة الكوفة خليطا من تجمعات سبع كل مجموعة تتكون من عدة عشائر ، وكان العرب أول هبوطهم الى العراق ينزلون الشواطيء ويبنون بشكل هندسى مكون من خيمتين خيمتين واذا طغى النهر ترفعوا عن الشواطيء ملتجئين الى المخيمين الكبيرين البصرة والكوفة واليك التقسيمات السبعة .

الاول كنانه وحلفائها وجديله وكانت هذه القبائل سنادا للعامل فى الكوفة من زمن سعد الى العهد الاموي وهم المعروفون بأهل العالية .

والقسم الثاني قضاعه وغسان وخثعم وكنده وحضرموت والازد .

والثالث مذحج وحمير وهمدان وقد لعب هذا القسم دوره فى حوادث الكوفة .

والرابع تميم ورباب .

والخامس بنو أسد ومحارب وبنو بكر وتغلب واكثرية هؤلاء من ربيعة .

والسادس اياد وبنو عبد القيس وأهل هجر والحمر ، والاولان من هذا القسم قبائل كانت تقيم هناك من السابق أما

بنو عبد القيس فقد هبطوا من البحرين تحت زعامة زهره بن حويه وكان الخمر حلفاء زهره ويسمون جنود شانشاه كانوا قد استامنوا يوم القادسية على ان ينزلوا حيث احبوا ويحالفوا من احبوا ويفرض لهم فى العطاء وكان لهم نقيب يقال له « ديلم » ولما جاء زياد فرقهم فى الشام والبصرة والكوفة .

والسابع ململمه اظهرهم طي ولما تولى الامام علي قيادة الكوفيين غير تشكيل هذه التجمعات فكانت أولا همدان وحمير والحمر وثانيا مدحج واشعر وطي وثالثا قيس وعبس وذبيان وعبد القيس رابعا كنده وحضرموت وقضاعه ومهره خامسا الازد وبجيله وخثم والانصار سادسا بكر وتغلب وبقية ربيعة سابعا قريش وكنانه وأسد وتميم وضبه ورباب .

ولما تم تمصير الكوفة شقت فيها شوارع وسكك عرض السكة خمسون ذراعا والشوارع كانت تنور بالمشاعل وكانت اخماس الكوفة تنقسم الى خمسة عشر منهجا ، فمناهج الربع الاول وهو الواقع شمال الجامع محلات سليم وثقيف وهمدان وبجيله وتغلب وتميم اللات ومناهج ، الربع الثانى وموقعه جهة القبلة جنوبا محلات بني أسد ونخع وكنده والازد ومناهج ، الربع الثالث فى شرقي الجامع محلات الانصار ومزينة وتميم ومحارب وأسد وعامر ومناهج الربع الرابع وموقعه غربي الجامع محلات بجيلة غطفان وبجيلة قيس وجديله وجهينه وغيرها ولم ينشأ للكوفة سور بل كان لها فى الموضع الشرقي خندق وقد أخذ المنصور الكوفيين بحفر هذا الخندق وكان يأخذ من الفرات ويعبر عليه بواسطة قناطر لها أبواب وكانت

القوارب تجري في هذا الخندق ، أما المسناه المعروفة بمسناة جابر فكانت في محلة مزينة وكان نهر في الجانب الشرقي يقال له نهر بني سليم وكانت حوله اسواق وحمامات ، وفي الجنوب الشرقي للجامع قنطرة الكوفة الشهيرة وأول من اصلحها خالد القسري وبعد ذلك اصلحت مرارا وقيل ان هذه القنطرة نشأت قبل العهد الاسلامي وكانت قد سقطت واتخذوا مكانها جسرا . ثم جاء العهد الاسلامي فبناها أولا زياد فابن هبيره فخالد القسري وبعد بني أمية اصلحت مرات عديدة، ومن المواقع البارزة في وضع الكوفة الهندسي الجبانات والصحاري ، لقد كانوا يتركون في كل خطة رحبة من الارض فسيحة ترى امثالها اليوم في المدن العربية مثل يثرب والنجف والزبير والكوفة ومكة وشطرة المنتفك يسمونها «صفا» بضم الصاد و « فضوه » اخذا من الفضاء و « مناخه » و « بسيطه » وكانوا يطلقون على قسم من الرحبة الجبانة وهي المحل الذي يدفن فيه أهل تلك المحلة امواتهم ويطلق على الباقي من تلك الرحاب « صحراء » وهي محل الاحتفالات والاجتماعات العامة اقدمها وأهمها جبانة «الثويه» وهي لثقيف وقريش وهذه الثويه تكرر ذكرها في شعر المتنبي وموقعها اليوم بين النجف والكوفة في المكان المعروف بـ « كميل » وهو كميل بن زياد أحد التابعين المدفون بالثويه ، وجبانات الكوفة وصحاريها كثيرة عديدة تكاد تكون لكل قبيلة أو كل محلة ، وكان في نظام الكوفة اقطاعان اقطاع دور أشبه بمشروع الاسكان اليوم واقطاع زراعي ، أما اقطاع السكن فقد كان

الى جنب ذلك الرحاب من الصحارى « دور » في وسط سوح فسيحة اتخذت لبعض النابهين وسكنت حسب النظام الاقطاعي اختص الصحابة بتسعة عشر دارا منها في العهد الاموي وتوسع الاختصاص بدور عديدة بعد ذلك .. وأما اقطاع اراضى الحرث فاليك بيانه .

كان السواد من المواقع المفتوحة عنوة فكان من الاراضى الخراجية وكانت أرضه على ثلاثة أنواع أولا الماهولة بعرب الحيرة الذين انكشفوا عنها على أثر حوادث الفتح والتي كانت ممسوحة ومسجلة باسماء اصحابها كما نقول اليوم « لزمة » ، وثانيا الاراضى التى كانت خاضعة للجباية الساسانية أو كما نقول اليوم « اميرية » ، وثالثا الاراضى التى كانت مملوكة للساسانيين أو كما نقول « طابو » ، كل هذه الانواع اعطيت اقطاعا للزعماء والنابهين قرية قرية ولم يكن الاقطاع على عهد عثمان كما هو معروف بل يظهر أنه كان اسبق من ذلك فان ابا عبيده الثقفي ترك لولده المختار طسوجا قريبا من بابل كان اقطاعا له وابو عبيده لم يدرك عهد عثمان . وقد كانت في الكوفة ثلاثة أماكن مشاعة بين المسلمين يتركها السابق للاحق ليس فيها اختصاص لاحد الجامع والسوق والمناخة .

« جامع الكوفة »

ان المسجد الجامع في الكوفة أثر من الاثار المجيدة للفتح الاسلامي ومفخرة من مفاخر التاريخ العربي اختطه

سعد أول ما اختط وبعد ذلك كلف سعد المهندس ابا الهياج بتخطيط الكوفة فوضع أبو الهياج الجامع فى غير الموضع الذى اختاره سعد وجعله فى المكان الذى كان معروفا بموضع أهل الصابون والتمارين ولم يتخذ له سورا بل حفر له خندقا يمنع الدواب من الدخول اليه وبنى فى مقدمته صفة على زخام جيء به من ابنية الاكاسرة فى الحيرة فكانت محلا لاجتماع الناس عندما يكثر الزحام فى المسجد وبنى اساطين عديدة وترك صحنا كبيرا لا يوجد فيه الا المسجد والقصر والاسواق ، ومنع القبائل من السكنى فى ذلك الصحن ومن حوله اختطت المناهج العظمى بين دور السكنى فى الجهات الاربع للمسجد

ومن وراء المناهج مناهج اصغر منها ، وكان لكل قبيلة من القبائل الكبرى باب تدخل منه الى المسجد وهكذا بقي الوضع الى العهد الاموي وفى ذلك العهد جدد وزاد فى وضعه كثير من الولاة أولهم المغيره بن شعبه فزياد فالحجاج فيوسف بن عمر وكان موقع المسجد حيال قصر الامارة يمنة عن القبلة ثم مدال منقطع رحبة علي فكانت الرحبة قبلة ويمنة للقصر وأعظم بناء للمسجد كان فى عهد زياد وعلى يده لقد جمع زياد ما قدر على جمعه من بنائي الفرس ووصف لهم موضع المسجد ... وما يريده له من الطول والعرض والارتفاع فقال له بناء من بناة الاكاسره نجيء بالاساطين من جبال الاهواز ثم تنقر ثم تحشى بالرصاص وسقافيد الحديد فنرفعه ثلاثين ذراعا فى السماء ثم نسقفه فارتاح زياد لذلك الوصف وأمر بالانشاء وزاد فى البناء ووسع المسجد وجعل

له سورا وأبوابا وفرش أرضه بالحصى لان المصلين كانوا اذا رفعوا ايديهم من السجود ينفضون ما علق بها من تراب فخشى زياد ان يظن الناس على مر الايام ان نفض الايدي سنة في الصلاة بجامع الكوفة وكان الموكلون بجمع الحصى يعنتون الناس ويطلبون انتقاء ضروب مختارة من الحصى فقيل في هؤلاء المعنتين يا حبذا الامارة ولو على الحجارة • وفي أوائل القرن الثالث عشر للهجرة أصلح المسجد العلامة المهدي الشهير ببحر العلوم ومن جملة ما أصلح ان دفن أرض المسجد الاصلية بالتراب على ارتفاع ستة اذرع تقريبا وذلك تنزيها لارض المسجد الطاهرة من ان يلحقها شيء من القذارة بواسطة الاعراب الذين كانوا ينامون هناك ، وبقي المسجد ماثلا بجلاله وصفوفه وبلاطاته عدة قرون ففي القرن السادس يصفه الرحالة ابن جبير بقوله : جامع كبير في الجانب القبلي منه خمسة ابلطة وفي سائر الجوانب بلاطان وهذه البلاطات على أعمدة من السواري الموضوعة على صم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة مفرغة بالرصاص وهي في نهاية الطول متصلة بسقف المسجد ويقول لم أر في الارض مسجدا أطول أعمدة منه ولا أعلى سقفا ، وفي القرن الثامن للهجرة يصفه ابن بطوطة فيقول : أنه الجامع الاعظم بلاطاته سبعة قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة صنعت قطعا فوق قطع وافرغت بالرصاص مفرطة في الطول • أما المشاهد منه اليوم فجامع كبير مساحته مربعة تحيط به الابنية فمن جهة القبلة اسطوانات متصلة وهناك المحراب والمنبر وفي جهاته الاخرى

غرف وايوانات وفي وسط الساحة محاريب ومزارات ودكاك ، وللمسجد اليوم باب واحد يسمى قبلا باب الثعبان واليوم يسمى باب الفيل وأرض المسجد منخفضة ويحيط بعمارته سور بارتفاع خمسة عشر مترا وبجنب الباب منارة والى جانب المسجد في الشرق ووراء السور مساكن لخدم المسجد • ويتقدم تلك المساكن مشهد مسلم بن عقيل يقابله مشهد آخر لهاني بن عروة ويوجد في جانبه الغربي وراء السور عمارة تشتمل على مرافق للاقامة والسكنى ينزلها الزوار بناها أحد سدنة النجف الاشرف وهو السيد علي آل كمونه وحولها سوق ومقهى •

القصر :

ويعرف بقصر الامارة وهو الذي بناه سعد وسماه الخليفة عمر بن الخطاب بقصر الخبال ولما دخل أمير المؤمنين علي عليه السلام الكوفة قيل له اتنزل القصر قال لا اسكن قصر الخبال ، وموقع القصر الجهة الجنوبية من الجامع وملاصق له وكان للقصر باب ينفذ الى الجامع وقد اندرس هذا القصر من زمن بعيد فقد ذكر بعض الرواد الذين عرجوا على الكوفة أنه لم يبق من ذلك القصر غير الاسس • والظاهر أنه لم يعمر أكثر من العهد الاموي وكان السبب في هجره وزواله تشاؤم الولاة والحكام منه فقد قيل عن بعض الداخلين على بعض الامراء في ذلك القصر ان قال له في هذه الدار في هذا المكان رأيت رأس الحسين عليه السلام بين يدي عبيدالله بن زياد ورأيت بعد ذلك رأس عبيدالله بن زياد بين

بدي المختار بن أبي عبيده ورأيت بعد ذلك رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير ورأيت رأس مصعب بين يدي عبدالملك .

في هذه الدار في هذا الرواق

على هذا السرير رأيت الملك وانقرضا

فتشائم منه وهجره وقيل هدمه كما قيل ان ذلك التشاؤم كان في أوائل العهد العباسي ، وقبل سنيات من تحبير هذه الكلمة قامت ادارة الاثار العراقية بالتنقيب عن ذلك القصر ورفعت تقريرها واليك نصه :ـ

جرى الحفر الاول مرة في ثلاث جهات الشرقية والشمالية وفي زوايا الشمال الشرقي فظهرت جدران ضخمة بسمك أربعة أمتار وارتفاع سبعة امتار . وبنتيجة تقاطع الجدران الداخلية والخارجية ظهر ان طول القصر ١٧٠ مترا وعرضه ١٧٠ مترا ويوجد في زواياه الاربع بمكان تقاطع الجدران الخارجية ابراج اربعة قطرها ستة امتار ومحيطها ١٤ مترا والابنية كلها بالجص والطاباق الضخم وهندسة بنائه عربية لم يتكلف فيه بالزخرفة والنقوش ، ويظهر ان عمارته بنيت بسرعة كما انها هدمت بسرعة وتبين ان للقصر بابين بابا في الجهة الشمالية قرب البرج الملتصق بالجامع مما يحاذي قبر المختار بن ابي عبيده وبابا في الجهة الغربية ملاصقا للجهة الجنوبية من الجامع وكذلك ظهر ان للقصر عدة ابراج كبيرة ، ولم يعثر فيه على اثار قيمة تستحق الذكر عدى عدة قطع زجاجية من الزجاج الملوكي الراقي الذى كان يستعمل في ذلك العصر ذى الصنع الدقيق على شكل اكواب أو أواني

شرب ولكنها غير كاملة ، وعثر أيضا على قطع متنوعة من الفخار المحزز غير المزجج وقطع قليلة من الفخار المزجج وعثر على طابوقة مزخرفة كتب عليها « دار » يظهر انها كانت متممة لعدة طابوقات اخرى مكتوبة ، وعثر على قطع صخرية متنوعة يظهر انها كانت تستعمل فى العصور الماضية سنارات للابواب أو توضع فوق أعمدة الرخام ، أو تحتها وعثر على طابوق من أشكال متنوعة واحجام مختلفة والوان متعددة يستبان منها انها كانت لابنية اسلامية وذلك لبساطتها وعدم تكلف التزويق والنقوش فى جدرانها كما كانت تفعله ملوك الكلدان والاشور والفرس قبل الاسلام ولان هندسة بنائها بسيطة جدا . ووجد فى الركن الشمال الغربي مما يتصل بركن المسجد غرفة طولها نحو ثمانية امتار وعرضها خمسة أمتار ولها بابان وبجنبها مما يلي المسجد أربع غرف اخرى صغيرة وكذلك ظهرت فى داخل القصر عدة ابنية اخرى ربما كانت غرفا أو مخازن وهي كثيرة ، ووجد فى الركن الشمالي والشمالي الشرقي غرفة مزججة بالمسك وهي بديعة جدا واكتشف حوالي القصر وداخله عدة مجارى للمياه الشرب من النهر الى القصر واكتشف فى داخله عدة ابار .

الكناسة :

كانت أسواق الكوفة كثيرة فسوق القصارين والجزارين والخياطين والسواقين وهم باعة السويق والبقالين والنحاسين والصاغة وباعة الازهار والصيارفة والبزازين وأصحاب الانماط والحبر ، وكانت الاسواق تمتد من الجامع والقصر حتى تتصل

بالكناسة وكانت دكاكين الصيارفة والسماسرة ومحلات المكارية منتشرة في الكناسة التي كانت أولا محلا للكناسة وتعرف بكناسة أسد ثم صارت محلة فيها اسواق تتمركز فيها الاشغال التجارية مع البلاد العربية وكانت موضعا للحمولة توضع فيها وترفع عنها لذلك كان في ناحية منها سوق البراذين حيث تجرى فيها المعاملات على بيع البغال والحمير والابل وعلى أكترائها ، وفيها يباع الرقيق وفيها محلات للمراهنين على الحيوانات العاملة وفيها محل الشنق وقد شنق فيه جسد زيد بن علي بن الحسين عليه السلام وفيه شنق أبو الخطاب وكثير سواهم ، ولا يعرف في يومنا هذا موضع الكناسة على التحقيق وأكبر امارة لنا عليه هو المشهد المعروف بمشهد زيد بن علي وهو القائم في قرية تقرب من الكفل وقريب من الموضع المسمى قبلا بالنخيلة واليوم يسمونه العباسيات ، وقد كانت النخيلة باب الكوفة للداخل والخارج الى الشام عن طريق كربلاء وفيها عسكر الإمام علي عليه السلام لما اراد « صفين » وفيها عسكر ابن زياد لما اراد حرب الحسين عليه السلام وكانت النخيلة على بعد ميلين تقريبا من الجامع شمالا على خط الميدان وجبانة السبع وجبانة خثعم وجبانة شمام ، ويمكننا القول بان الكناسة سوق برية للكوفة مثل المربد للبصرة . وكانت اسواق الكوفة مغطاة بالحصر وفي عهد خالد القسري عقدت بالحجارة وفي هذه الاسواق انتشر الصيارفة والمسلفون وكانت الصيرفة عملا كبيرا ورابحا في الكوفة

التى هبط عليها الصيارفة من الحيرة ففي الحيرة كما ذكرنا سابقا وجد العمل الصيرفي المتقن لانها كانت محطة تجارية كبرى بين بلاد الفرس والهند وسوريا وبلاد الروم عظمت الحركة الاقتصادية فيها وفاض المال حتى ان الاهالي لسعة ذات اليد عندهم كانوا يتعاملون بالذهب وزنا . وجاء دور الكوفة التى نشأت فيها مدينة الرزق أو دار الرزق تلك الدار التى كان يجمع فيها متاع القافلة أولا ثم أصبحت دار مضاربة اقتصادية كبرى لعبت دورا مهما فى حوادث الكوفة وكانت هذه الدار تقرب من شارع اليهود بين الجسر فى شرقي الكوفة وبين المحل المعروف بـ « مقام النبي يونس » وهذا المقام يقع اليوم على النهر فى وسط العمارات من الشمال الغربي للجامع وعليه فيكون موقع دار الرزق أو مدينة الرزق فى محل السوق المعروفة اليوم بـ « سوق آل شمسه » أو قريبا منه ، وكان المسلفون والصيارفة يمتلكون ناحية البلد ومن هنا تعهد الصيرفي ابن مقرن للمنصور بالدعه والطمأنينة فى الكوفة وقد اتقنت الكوفة عمل الصيرفة ونظمته على شبه « بنوكة » اليوم ، وصيارفة اليهود الذين ظهروا فى بغداد كانوا مدينين للكوفة بعملهم لان الكوفة كانت تدير المدائن بالعمل الصيرفي مباشرة ، وأكبر محلات الصيرفة فى الكوفة كانت للمسيحيين الذين انتقلوا اليها من الحيرة ومنهم تلقف اليهود هذا العمل وجاؤا به الى المدائن أولا والى بغداد ثانية .

« الحالة الاجتماعية »

ان اجتماعيات الكوفة كانت على الاغلب خبيثة وفاسدة فشت فيها الفتن والاهواء وطغت عليها الدسائس والاحقاد وعركتها الحوادث مرارا وضعضعتها القرامطة وكان الناس فيها شيعا يفتك بعضها ببعض ويسعى بعضهم على بعض ، وقد نجم فيهم قرن الاعاجم الذين حمستهم ثاراتهم ودفعتهم اوتارهم اولئك الذين قهرتهم الغلبة ولكن بقيت نعراتهم القومية ملىء جوانحهم وحنينهم الى الوطن مكبوتا يظهر طابعه فى ارائهم وتاريخهم وتقاليدهم وجامعتهم . ولم تزل الشعوبية تدس للعروبة حتى شبت الثورة وانحاز العرب عن الدولة الى الفرات وسيف البادية فكان اذا اطفئت نائرة فى جانب تسعرت اخرى فى جانب .

ان معول الهدم فى الكوفة كان أولا من تبرم الامويين لانها علوية فقاموا بالف عمل وعمل لترويضها ، وثانيا ترك العباسيين لها شاغرة لانها عربية وقد اعتمدوا فى دولتهم على غير العرب ولم يكن صدوف العباسيين عن الكوفة الا صدوف عن مركز العروبة لان العروبة فى العراق كانت من قبل ومن بعد فى الفرات وبادية الفرات وكان الاتصال الوثيق بين الريف الفراتي وجزيرة العرب هو الكفيل بحفظ العروبة في العراق وتجديدها ولا تزال الموجة العربية تطغوا الفرات من الجزيرة فتجدد عروبته وتبعثها جذعه ، ففي كل قرن أو أقل من قرن يحتضمن الفرات قبيلة هابطة من الجزيرة وافدة

عليه والطنب العربي الماد على الجانب الايمن للفرات يكاد يمثل سياجا او رواقا عربيا هذا عدا الروابط العشائرية من المصاهرة ومحبوك الانساب والعلاقات الاقتصادية والتفلي للمرعي وغير ذلك من وسائل المزج .

وفى العهد العباسى كثر المكروه للعرب ولمسوا انحياز الدولة عنهم فرجعوا الى عزتهم القومية وانكمشوا فى النواحي والاطراف نعم انتشرت السبحة وضاع الرعيل ومن يقوده وبهذه العثرة اتضعت الامة باخلاقها وفسدت العامة من أهل المدن حتى اضطربت المقاييس الاخلاقية وصار الناس يقيسون بمقاييس الظاهر ، وبطلت عندهم موازين الرجولة وخلاصة القول ان نهضة الكوفة وبناهه ذكرها كانت من خصوصيات المحيط ومؤهلاته لم تعن عليها دولة بل ان الدولة عملت على الحط منها والاضاعة لقد قارن الحجاج بين البصرة والكوفة فوصف البصرة بكونها عجوز شمطاء ترفل بالزينة وأنواع الحلي . ووصف الكوفة بكونها عذراء جميلة تعتز وتتفوق بمجاسنها فهي عارية من الحلي والعقود .

« مدرسة الكوفة »

ان العراق اكثر البلاد العربية ثروة علمية وأدبية والكوفة أهم كنز من كنوز تلك الثروة ومن القديم كانت الكوفة معهد علميا مهما فى تاريخ العراق فقد قيل ان عاقولا كانت قبل الاسلام مدرسة ارامية انتشرت فيها الاداب السريانى

فالروماني واليوناني وكانت قريبة من الكوفة أو بمكانها ، وغير هذا فقد كانت الكوفة أول مدرسة عربية جمعت الادب والفلسفة والعلم والفن وانها المركز الثانى للفقه الاسلامي بعد الحجاز وبالاصح ان الكوفة ورثت حضارات واداب كثيرة لامم شتى وللدول التى سبقت العرب فى تلك البقاع ، والوارثون كانت لهم موهبة الابداع والابتكار في الفكروالتصور وخصوصا الجماعات الهابطة من جنوب الجزيرة العربية من اليمانيين فقد كانوا أهل حضارة وتمدن وعندما نزل العرب الكوفة كان اليمانيون أكثر من العدنانيين ، ومما يزيد فى المادة العلمية هناك أولئك الفرس المسمون بالحمر هذه بعض الاسباب لتفوق مدرسة الكوفة فى تأسيس الثقافة العربية الاسلامية ، لقد كان الابداع فى الكوفة شاملا لكافة ادوار الثقافة من الفلسفة والتصوف وعلم الحقوق •• الفقه •• وعلم الاصول فكانت محطة للفقهاء والمشرعين وكان لها مذهب الاجتهاد ، ولها المكانة فى السياسة واداب اللغة فمذهب الكوفيين ومقالتهم منوه عنها ومشهورة وقد قيل ان الادب ميراث الكوفة ، وكانت الجماعات العربية التى دخلت الكوفة بفروسيتها قد تركت الحرب والفروسية وعقدت مجالسها للادب كما يظهر ذلك من ثنايا خطب نهج البلاغة فقد خاطبهم قائدهم الاكبر وامامهم بقوله ما لكم اذا تركتكم عدتم الى مجالسكم حلقا تضربون الامثال وتتناشدون الاشعار تربت ايديكم نسيتم الحرب واستعدادها وأصبحت قلوبكم فارغة منها • وكانت النباطرة أكثر من غيرها الماما بعلوم اليونان فترجموا

لاهوتهم وفلسفتهم كما واشتهروا بالطب والعلوم الطبيعية وكانوا اطباء البلاط الفارسي وانتشروا في الحيرة ومنها زحفوا بلواء العلم الىَ الكوفة وكانوا الصلة بين العرب واليونان ، وكانت السريانية هي اللغة الكوفية التي استعملها النساطرة لبث الثقافة واذا علمنا ان وسائل تسرب الثقافة والمدنية في ذلك العهد هي التجارة والامارات على التخوم والحدود واليهود والنصرانية تكون بيئة الكوفة اثري واوفر مادة من غيرها .

وقد كان في الكوفة منبران منبر نهج البلاغة ومنبر معلم الكوفة ابن مسعود ويقال لتلامذة هذين المنبرين سرج الكوفة ومما اعان على ثراء مدرسة الكوفة الخط الكوفي حيث اختصت به واختص بها ومن المعلوم ان الخط ولوازم الخط واثار الخط من تحرير وتقرير وتأليف ومراسلة هو الاساس للثقافة ، وقد كان لاداب اللغة العربية اكبر مظهر في مدرسة الكوفة فقليل من الالمام بحياة المتنبي وثقافته يكشف لك مظهر الادب في الكوفة .

« مدرسة المتنبي »

الف عام واكثر وابن الكوفة مادة الادب الحي في الاقلام وعلى الشفاه لقد بحثت عنه مئات الكتب والرسائل وهو بعد محتاج الى البحث والدرس ، وان تاريخ الادب العربي ينتظر الموفق الذي يدرس هذا النابغة واثاره دراسة فيه مجديه فيقدمه واضحا ابلجا يقدمه كحلقة من السلسلة

الذهبية للادب العربي ، مرتبطة الطرفين بما قبل وما بعد يقدمه كواسطة بين نظامين ، يقدمه كنتيجة للماضي وعلة للمستقبل.

لقد اشتركت في تكوين ابي الطيب علل وأسباب أنه لم يكن كقرص الشمس مستقل في اشعاعه . بل هو نتيجة الماضي ومتصل بالحاضر كل الاتصال . يستل من هذا وذاك مثلا للمستقبل ، وعمل كهذا كما قيل في عمل غيره وصفي لا وضعي ، واني لم يتيسر لي تعريف المتنبي وتحليله كاديب عالمي ، وكل كلمتي فيه كاديب عربي ، ان المتنبي كما اعتقد ثمرة العروبة ، فالعروبة وحدها عملت على تكوينه واعطت هذه الثمرة نضوجا ، وان الحالة السياسية العربية والاجتماعية والاقتصادية والادبية التي وجدت في زمانه ومكانه هي التي صهرت هذه السبيكة ، فكانت قلب الشاعر الحساس تستعرض الوادي الادبية منه ، مرأة ارتسمت فيها الصور الخلابة .

نشيء المتنبي من عائلة غير ثرية ، وكان طموحه يدفعه الى معالي الامور وقيادة الناس لاجل استرجاع مجد العروبة وما يرد عليها جدتها ، وقد اصطدم في صباه بحادثة عرفته بما سفت اليه اخلاق الناس من اعتبارهم المال وصاحب المال قبل كل شيء وفوق كل شيء ، قال «اذكر أني في صباي وردت بغداد واخذت بجانب منديلي خمسة دراهم ، وخرجت أمشي في اسواق بغداد ، ومررت ببايع فاكهة استحسنتها ، فحاولت شرائها وقلت لصاحب الدكان بكم تبيع هذه البطاطيخ ؟ » .

ـ « اذهب فليس هذا من اكلك » .

ـ فتماسكت وقلت «يا هذا دع مايغيظ واقصد الثمن» .

ـ « ثمنها عشرة دراهم ـ خمسة لا ـ لا اقبل » ولشدة ما جابهني به وقفت حائرا واذا بتاجر يعبر الطريق ، وسرعان ما وثب اليه صاحب الدكان ودعى له .

« مولاي هذا البطيخ باكور ، باجازتك احمله الى البيت» .

« ويحك بكم ؟ » .

« بخمسة دراهم » .

« لا لا بدرهمين » .

فباعه بدرهمين وحمل البطيخ الى بيت التاجر . فقلت « يا هذا ما رأيت أعجب منك . استمت علي وفعلت فعلتك التي فعلت لاني اعطيتك خمسة دراهم وتبيعه محمولا بدرهمين » .

« اسكت هذا يملك مائة ألف درهم » .

من هذا الاعتبار وهذه العضة انطوى المتنبي على عقيدة راسخة بان المال هو الركن المهم لما يحاول وما يريد وقد طفحت هذه العقيدة على لسانه عندما خاطب كافور بقوله :

ودبره تدبير الذي المال كفه
اذا حارب الاعداء والمال زنده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

كانت مدرسة الكوفة على عهد المتنبي عربية محضة تعرف ذلك من فهرست ابن النديم وقد كان ابن النديم معاصرا للمتنبي وتأخر عنه قليلا ، فكتابه خير دليل على لون الحركة الفكرية في الكوفة ، انك تجده يخبرك عن الاقلام العربية واثارها في الكوفة ، وفي هذه المدرسة تثقف المتنبي ثقافة عربية

بحته ، دخل وهو صبي كتاتيب الاشراف ، وبعد ان تخرج منها انخرط في صفوف الجامعة الادبية ، وهي تلك الحلقات والمجالس العلمية التى كانت تنعقد فى مسجد الكوفة واروقته وقرأ على ائمة الادب ، وتوافر بالاطلاع على اخبار العرب ومنازلهم ومياههم ، أما مبلغه من اللغة فتشهد له المجموعة الغالية التى اشتمل عليها ديوانه أولا وملحه ونوادره المروية فى مجالس علماء اللغة ومنها شهادة ابي علي عندما استجوبه عن الجموع على وزن فعلى ، واما خبرته بمنازل العرب ومياههم فتعرفك بذلك قصيدته المقصورة التى اشتملت على كثير من المنازل والمياه التى مر بها عند جفلته من مصر ، ان الطريق التي سلكها وذكرها فى مقصورته طريق غير مسلوكه لا يتغلغل فيها ولا ينفذ منها الا الخريت ، كما وقد صقل ثقافته بتجواله فى البادية وتطوافه فى الجزيرة أول نشأته محاولا تجديد ما فيه من اخلاق عربية وتقاليد حتى طبع نفسه بذلك الطابع الناصع وجدد ما فيه من روح ودم ، ولما عاد الى الكوفة توافر على ما فيها من المكتبات ودكاكين الوراقين تلك الحوانيت الغاصة بالورق الصيني والخراساني والقرطاس المصرى والجلود والصكاك التى حفظت علوم العرب ونتاجهم الذهني ، وقد كان غاية فى الحفظ كما تشعر بذلك قصته في حانوت احد الوراقين حينما استعرض ما كان عنده وتناول كتابا من كتب الاصمعي من يد أحد الدلالين وقد شط فى سومه فقرأه ثم قرأه فاستهظره ورده على الدلال قائلا لم تبق لي حاجة به ، وكان أبو الطيب احتجاجا صارخا وثورة

منسوبة على ما كان فى الكوفة من بعثره واضطراب فى الموازين ، لقد عبثت الشعوبية فى ذلك المصر فاصطدم قلبه بتلك الاحداث وكان الذكاء وبعد النظر والاختلاط بالناس قد ملئت نواحي قلبه وشدت عقيدته بفساد الاقيسه عند الناس وبطلان مواهبهم فى الحياة وعرف ان لا صحيح غير الاعتماد على النفس والثقة بما فيها من اعتداد وقوة فانتزع تلك الحكم الغالية بضرب من القول الساخر لقد غمره التعجب مما يرى ويسمع فامتلأ دهشة ظهرت فى كثير من نواحي ديوانه بصوغ من التعجب محفوف بسخرية واستهزاء .

لقد شاهد المتنبي فتك الشعوبيين وتطاول الفرس والروم والترك والديلم ورأى شتى الفرق والطوائف تلعب ادوارها المخربة فى الملك والدولة فضرب فى الافاق والنواحي يطلب مركز القوة ويفتش عن عين الميزان يفتش عن المائل الذى يكون ملء عينيه وملء صدره .

ترك العراق الجياش بالفتن ورؤوس الفتن فجانب الكوفة وما فيها من شيع عقائدية كالخوارج والعلويين والعباسيين كما أنه زهد ببغداد وفرسها وتركها وديلمها وعافتها نفسه الملية بالثورة على الشعوبية دخلها وهو واجم وزايلها وهو كاظم اما البصرة فاكبر احتجاج له عليها اهمالها حتى كأن دنيا العرب خالية من البصرة والمربد وسارت به همومه فجاء الطولونية والديالمة والاخشيدية والسلجوقية والفاطمية والحمدانية وقد تضرم وتبرم من الجميع الا الحمدانية اذ وجد فى سيف الدولة ما تتطلبه العروبة لو تخلص

مائل آل حمدان من دس الشعوبية والاعاجم الذين لمسوا في سيف الدولة ما لمسه المتنبي فاقاموا الحواجز فى طريقه وسدوا عليه المنفذ ولم تكن بغداد بريئة من محنة سيف الدولة بالروم *

من خلال هذه الجولات وضمن هذا الطواف تظهر للباحث الذى يتذوق الشعر ويتعرف على اهدافه عروبة المتنبي وما يحاول للعروبة تراه عندما يستقبل العربي مثل بدر بن عمار وابي العشائر وسيف الدولة يذكو نفسه وتتفتح نفسه فيسمو بها عامرة بالامال صاخبة بالآلام تهز القوة والرجولة وترسم الطريق اللاحب للامجاد والتقاليد حتى تكاد تسمعها عجاجة بالنخوة هتافة بالحفيظة طالبة استرجاع العز وتدارك الثأر وتراه عندما يتصل بغير العربى مكبوتا مكبودا تعلو قصيدته مظاهر الحزن والسخرية والتململ وتقاطع نظمه وثبات لا تنسجم ومجرى القصيدة وما هي الا ثورة الطبع وصيحة النفس معلنة ان هذا المدح هجاء لأبناء جيله فاسمعه يقول :

وشعر مدحت به الكركدن
بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحا له
ولكنه كان هجو الورى

يا لها من مقصوره مقصورة على الالم المر والكبت العظيم واسمعه حين يجفل من مجلس سيف الدولة ويسافر مضطرا الى كافور فيطلع بتلك العصماء ولكن مرارة ما فى نفسه

تغلب عليه فينفجر بذلك المطلع وكأنه يخاطب نفسه حين يقول :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا
وحسب المنايا ان يكن امانيا

من الكوفة وهي المدينة العربية ومن مدرستها ومن الحالة الاجتماعية التى كانت للعرب فيها نبغ فتى كنده وهو ثورة عربية يحمل الرسالة البالغة مشرقة فى اسلوبه وفى اهدافه وفي رجولته والقوة بادية عليها وموشحة بالمثل العليا والحكم المستله من روح العرب واخلاقهم وقرارات نفوسهم فأنت ترى بكل وضوح اثرا لصقال البادية فيه اذا سمعت قوله ٠

وقلنا لها اين أرض العراق
فقالت ونحن بتربان ها

لا تشك بان القائل ابن بادية لان هذه المجاوبة مختصة بالبدو لا يعرف ملحتها ولا يتذوق طرافتها الا ابن البادية أن كلمة « ها » البدوية تطوى دائما الفيافي والمسافات البعيدة فتربان فى الحجاز بضاحية المدينة المنورة طوت المسافات ما بينها وارض العراق قيلة البدوي « ها » ٠

ومن صقال البادية فيه كثرة التصغير فى الالفاظ وهى طريقة يستعملها ابن البادية وأهم ما فى ذلك الصقال معرفة مواقع ذلك الاستعمال ترى اثار مدرسته فى مطاوى ديوانه فترى للغة ميزات فى مواطن كثيرة وللنحو باصطلاحاته وقواعده اثار كثيرة أما حكمه البالغة وامثاله السائرة فلم تكن مدرسيه مستمده من النظريات ولا اثر فيها للذهنية الفارسية

أو الهندية انما هي وحي العروبة ومظهر من مضاهرها تلك ... المظاهر التى الهمت ابن ابي سلمى قصي ابن ساعده وغيرهما من نوابغ العرب الاقحاح ولا غرو فالعالم فيض فلسفه ومخزن لغوالي الحكم وقد كان ديدن العرب انتزاع جوامع الكلم من التجارب والاختبار استلهاما من ظواهر الكون ونفوذا فى بواطنه كما يطفح بذلك الادب الجاهلي وادب المخضرمين الذين نبغوا فى البادية • حتى اليوم والعرب تتمالح فى الضاحية بمثل هذه الامثال مستخرجة لها من وحي الوقائع لا من الكتب والمدرسة وكذلك ما جاء فى سفره عن ما وراء العالم فهو من مطالعاته للكون لا عن قراءة ودراسة وقد سما أسلوب المتنبي عن اساليب الحضر وطريقة بيانهم حتى أنه اذا تناول المعنى الدقيق مما يخطر للحضري أكثر مما يخطر للبدوي يصوغه صياغة بدوية صرفة فنراه وهو يصف وقع المطر على الارض واثر ذلك الوقع :

لساحيه على الاحداث وقع
كايدي الخيل ابصرت المخالي

ولم يفت المتنبي مظهر من مظاهر العروبة الا مظهر واحد وهو الرجوع الى الانساب والافتخار بها تلك العادة التى لا يفتر عنها شعراء العرب ولكن صاحبنا تنكب عنها وان ظهرت على لسانه عرضا كقوله

ومن تكن الاسد الضواري جدوده
يكن ليله صبحا ومطعمه غصبا

وقوله :

ما بقومي شـرفت بل شـرفوا بي
وبنفسـي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كـل من نطق الضـاد
وعوذ الجاني وغوث الطريـد

وما صدوفه عن هذه الظاهرة الا شنشنة النوابغ والعظماء الذين لا يعتمدون الا على أنفسـهم ولا يعتدون بسواهـا نبغ المتنبي كقطعة ادبية مصورة بكل ميزات العروبة ابدع تصوير ونضـج وهو ملي بالام العرب وامالهم نافذا الى الصـميم من اخلاقهم ونفسـياتهم ينقر على الوتر الحساس من تقاليدهم وعاداتهم فكان لسان القوميـة الفياض وقلبهـا الجياش يقول لاخيه العربي فيلمسه حركات قلبه ونزعات روحه ومبهمات نفسه لقد وفق لامرين لم يوفق لهما غيره قوة البيان والبيان معجزة العرب التي تهيمن على ألبابهم وتمتلك مشاعرهم وقد عرف علماء اداب اللغة العربية منزلة البيان عند العرب فعقدوا له علمـا خاصـا وكان المتنبي آية في بيـانه والامر الثاني أنه صادف العرب مغمورين بالشـعوبية قد رسبت كل مزاياهم القومية حتى بعـدوا عنها وطـال عهدهم بها لارتكاسـهم في شؤون الحضارة فجاءهم ذلك الاغر المحجل المتغلغل بالعروبة والمتولج على خوالجها وجعـل بموهبتـه ونبوغه وقوة بيانه يستل المثل العليا من صميمهم ويقومها لهم وهم مغلوبون على قوميتهم العزيزة يناغيهم فتحن النفوس وتتنزى القلوب متعلقة بذاك النشيد القومي المثير وسرعان ما تشيع النغمة طافحة على الشفاه فياضة على الشعور العام .

وفى عهد المتنبي بلغت الكوفة الغاية فى العمران فقد ذكر بشر بن عبدالوهاب القرشى فى عام ٣١٤ للهجرة ان مساحة المعمور من الكوفة كانت ستة عشك ميلا وثلثي الميل فيها خمسون ألف دار لربيعة ومضر وأربعة وعشرون الف دار لغيرهم من العرب وستة الاف دار لاهل اليمن .

وعاشت الكوفة الى القرن الثامن للهجرة وهنا ابتدأ الخراب فيها وبعد القرن الثالث عشر دب العمران اليها ثانية فى بداية القرن الرابع عشر للهجرة وكانت فى النصف الاول من هذا القرن أعمر منها اليوم وذلك لانها كانت أهم ميناء للفرات الاوسط تنحدر منها السفن التجارية الى البصرة حمالة للصادرات وتصعد اليها من البصرة حمالة للاستيراد ولكن بعد ان امتد القطار فقدت الكوفة اهميتها التجارية أما من جهة العمران فقد كانت النجف محطة علمية يهبط اليها علية القوم من ابناء فارس وكان المترفون منهم يتنزهون على شواطيء الفرات فى الكوفة الامر الذى استلزم ان تهيأ لهم أسباب الراحة من قصور ولوازم القصور فتقدمت الكوفة في العمران ولكن اخيرا تحولت الهجرة العلمية فهجرت الكوفة وعادت موحشة ولكن فى النصف الاخير من هذا القرن اخذ العمران يزحف اليها صاعدا من النجف والثويه واوشك ان يتصل ما بين المدينتين على العكس من وضعة العمران الاول التى كانت منحدرة من الكوفة الى الثويه وسوف تصبح الكوفة تابعة للنجف بعد ان كانت النجف تابعة للكوفة أما الاثار التى تشاهدها اليوم عن الكوفة الاولى فتشعر

ان مساحتها لا تقل عن اربعين كيلو مترا مربعا تعرف ذلك من الاحجار والصخور واثار المبانى المتراكمة فى الغرب والشمال للضفة الاولى من فرات الكوفة وفى الشرق لجانبى النهر ويوجد على حافتى الطريق بين جامعى السهلة والكوفة حفر مبثوثة تمتد الى ما وراء مسجد الكوفة تسميها المارة « مقالع » وهي قسم من عمارة الكوفة القديمة وبيوتها كان الناس ينبشونها ويقلعون حجارتها ويجلبونها الى النجف لتكون مادة للتعمير والانشاء وفى اوائل القرن الرابع عشر كانت هذه الحجارة مادة لبناء النجف حتى صار جلبها وبيعها عملا تجاريا وقد شاهدت وانا فى سن الصغر خارج الباب الكبير لسور النجف فى اتجاه طريق الكوفة وبالمكان الذي صار موقفا ومحطة للترمواى اكواما واكواما لانواع تلك الحجارة معروضة للبيع وكانت طاباقا كاملا أو انصافا وارباعاً أو كسرا أما الطاباق وانصافه فكان يباع بالعدد وأما الارباع والكسر فكانت تباع بالكيل فى الزمبيل لكل ماية زمبيل سعر .

لم تنهض الكوفة الاولى على النهر بل كان يبعد عنها قليلا اذ كان يجرى بموقع الجسر الذى كان فى الجانب الشرقى بين القصر والكناسة وكان الى الموقع المسمى « العباسيات » اقرب وقد كان ذلك النهر فرعا من عمود الفرات الذي يستقيم جاريا بين « برس » و « نرس » أما برس فهى بقية عمارة « باريسيا » التى كانت محلة ملحقة ببابل فى العهد الكلداني واليوم تسميها العامة « برس »

بكسر الباء واما نرس فهو فارسى يأخذ من الفرات سمى باسم أحد ملوك فارس وموقعه قبالة باريسيا .

وكان عمود الفرات يصب فى بطائح «سورى» وهي اليوم على ما يقولون « الجربوعية » .

وكانت الكوفة تسقى بواسطة السقائين الذين يجلبون اليها الماء وكان احدهم والد المتنبي ولهذا يسمونه ابن السقاء.

ولما اهتم الملوك والامراء باسقاء النجف اخذ الماء يمر بالكوفة ويصلها مثل نهر التاجية الذى اختطه الوزير تاج الدين فى القرن السابع ونهر الشاه الذى اختطه الشاه عباس الصفوي ونهر الطهمازية الذى اختطه الشاه طهماسب .

وبعد القرن الثانى عشر للهجرة اخذ الفرات يجرى بين يدي الكوفة وذلك ان النواب محمد حسين الهندي حول الفرات من اتجاه الحلة الى ما نسميه اليوم « الهندية » واصبح النهر تحت قرية الكفل ينقسم الى نهر العباسيات قريبا من باب الكوفة « النخيلة » وهو سقي الشامية فالديوانية فالرميثة فالسماوة والى نهر الكوفة فابو صخير فالفيصلية فالشنافية فالسماوة .

« واسط »
مدينة وكورة

المدينة :

قيل ان للعرب ستة عشر واسطا فى عدة مواقع من نجد

والحجاز واليمامة وغيرها من بلاد الجزيرة العربية ومن العراق في الدجيل من ضواحي بغداد وفي الخابور وفي الموصل ولكن اهمها واسط الحجاج في البطايح ويظهر ان الاسم لم يسبق المدينة فلا صحة لما زعم أنه كان قبل عمارة المدينة مكان يعرف بـ « واسط القصب » فنقل اسم المدينة الحجاج وان من يقرأ كتاب الحجاج الى عبدالملك قائلا انى اتخذت مدينة في كرش من الارض بين الجبل والمصرين سميتها واسطا ومن يطلع على قول ابي حاتم ان واسط التي بنجد والجزيرة تصرف ولا تعرف بخلاف واسط البلد المعروف لانهم ارادوا بلدا واسطا فلا شك بعد هذين السندين بان هذا الاسم لم يسبق المدينة ولاجل الاحاطة باطراف الموضوع في البحث عن واسط امهد بذكر طرف من الاسباب التي دعت لانشاءها ومن هو الحجاج الذى انشأ واسطا .

لقد اثبت التاريخ العراقي ان لكل دولة قديما عاصمة خاصة تحي بحياة تلك الدولة والاقبال يتحول من مدينة الى اخرى كما كان النفوذ والسلطان يتحولان من قوم الى قوم فبابل للسومريين ونينوى للاشوريين والمدائن للساسانيين والكوفة للعلويين وواسط للامويين وبغداد للعباسيين وقد كانت الاسباب تختلف في سر ذلك التحول وفي صدوف الدولة الوارثة عن عاصمة سلفها ، أما السومريون فقد كانوا أمة حرث وفلاحة فكان الفرات هو السر الوحيد لمكان عاصمتهم وبابل قلب الفرات ، ويظهر ان الساسانيين رغبوا عن بابل وعن كل مدن الفرات ووقع اختيارهم على دجلة

لانهـا أقرب الى املاكهم ومراكز نفوذهم ، واختـار العرب الكوفة لامور حربية فى ذلك الوقت واختارها علي عليه السلام عاصمة لكثرة الشيعة فيها ، وتحول العباسيون عنهـا مدفوعين بعوامل عديدة منها التخوف ومنها التطير ومنها عدم استقرار الملك فى الـكوفة وكثرة قطف رؤوس الامراء ، كمـا ان عوامل التوسـع العمراني فى العراق الذى اتخـذوه مقراً لدولتهم كانت من أسباب ذلك التحول فترددوا بين الانبـار والكوفة والهاشمية واخيرا استقر رأيهم على تخطيط بغـداد ولعل للفرس يدا خفية فى ذلك التخطيط لان بغداد أبعـد عن بلاد العرب واقرب الى بلاد الفرس .

أما الامويون فكانوا يرون العراق مركزا مهما لشيعـة العلويين وان النفوذ الاموي يصعب بسطه هناك خصوصـا فى الـكوفة التى كانوا يعالجون امرهم فيهـا بأنواع العلاج يدبرونه اليوم وينتكس غدا .

لقـد مكثوا فى الكوفة مضعضعين وكانت العشـرات الاخيرة من القرن الاول للهجرة ظروفا رهيبة فالعراق فائر متزلزل والثورة فيه بالغة دورها الرهيب والاضطراب اكثر من الانتظام والدعة ، وكان فى العراق احزاب وشيع ولكن روح النهضـة كانت واحـدة انهـا كانت شـريفة بحق الا وهي الانصراف عن البيت الاموى وهدم سلطانهم هذا هو المغزى وان اختلف الطريق ، فالثوار المجتهـدون كانوا يرون ان الحق للامة ولابد من تنحي المتنازعين وترك الامة حرة تضع ثقتها اينما شاءت والشيعة كانوا يرون الفضل والثقة فى البيت

العلوي دون غيرهم وهـذا هو مبدئهم الذى رافقهم من أول يوم الخلافة الاسلامية .

هكذا كان العراق وكانت ابطـاله لددا بسـلاء ، فبيت مثل البيت الاموي قام على العنف والقهر وجاءته الخلافة جرا لا بافضليه كعلي ولا باجماع كأبي بكر ولا بعهـد كعمر ولا بشورى كعثمان ان هذا البيت لا يصفـو له الملك بالترغيب أو الترهيب وعلى الأول اتكـأ معـاوية لانه رأى فى الرفق واللين ما يبخ الصدور الحارة ويخفف أو يلطف حركات القلوب وقد ماتت هـذه الخطة بموت معاوية ، ولـكن بقي المنهاج الاموي الذي وضـعه معاوية بقوله : انا لا نصـل الى الحق الا بالخوض فى كثير من الباطل . وركن وارثوه الى الترهيب كانما لاح لهم الخطر فى خطة معاوية فتنكبوا عنهـا ورأوا انهم صـعدوا العرش بمرقاة من جماجم فاذا فقـدوا الغطرسة لم يبق لهم شيء خصوصا وخصومهم أهل صراحة ومبادىء حقه وفيهم مضاء ونكير ، وكانت حزازات القلوب أوجدت للامويين من الرفاق من يعينهم على الرغبة فى اذلال الناس وسحقهم ، فكثرت لديهم رجال السخط مثل بسر بن ارطاة وخالد القسـري وعبيدالله بن زياد والحجاج بن يوسف شرحبيل الـكندي وجبـل النهري وعبـدالرحمن بن خالـد والضحاك بن قيس وغيرهم ، وكانت حصة العراق من هؤلاء العمال المجحفين حصة شريرة اضرت بالعراق وشوهت سمعة العراقيين فى التاريخ وخير مـا يدل على ذلك مـا جاء فى رسـالة « الاصـحاب » لابن المقفع التى رفعها للمنصور قائلا

« ان لاهـل العراق من العفة ومن الفقه والالباب والالسن ما ليس في سواهم وأنه ازرى بأهل العراق ان ولاة العراق فيما مضى كانوا اشرار الولاة وأن اعوانهم اشرار الاعوان فساءت سمعة العراق من أجل هذه الفئة الضالة وأستغل ذلك فشنعوا على أهل العراق عامة لما صنعت هـذه الفئة الخاصة ، ولما جاءت دولتكم لم تجد أمامها من أهل العراق الا هؤلاءالظاهرين ممن لا يصلح الاعتماد عليهم فلو نحوا هؤلاء وامثالهم واستقصى الناس وعرف أهـل الفضل واسندت الامور الى الاكفاء غير المتصنعين لظهر فضل العراق وأهله » .

وعندما كمل التصميم الاموي على الصرامة وعزموا على تثبيت اقدامهم في العراق واحتلاله احتلالا أمويا نثروا كنانتهم وعجموا عيـدانها واختاروا لذلك اصلبها عودا وهو الحجاج بن يوسف الثقفي وقد اصاب هذا المندوب الاموي حين رأى ان الكوفة لا تصلح لنثر بذوره التي حملها فعزم على اختيار بقعة جديدة صـالحة لذلك الزرع ، واختار واسـطا أولا لهذه الجهة وثانيا للقضاء على الفرس المتكمشين الى داخـل العراق حتى يتقي شر هؤلاء واولئك وقبل ان يختار الحجاج واسطا يجمل بي ان اعرفك من هو الحجاج .

لقد كان الحجاج معلما للصبيان في الطائف ببلاد ثقيف في كتاب ابيه ولم يكن من بيت نابه من بيوت العرب ولـكنه رجل جنـدي ممـلوء بالبطش ، فتخير منه المعمـل الاموي شخصية تاريخية . وأول من عرف الامويين به هو روح بن زنباع قائد الشرطة العام لعبد الملك بن مروان وكان عبدالملك

قد رأى الحاجة ماسة الى انضباط للجيش فذكر ذلك لروح بن زنباع فقال يا أمير المؤمنين ان فى شرطتي رجلا لو قلده أمير المؤمنين عسكره لارحلهم برحيله وانزلهم بنزوله يقال لـــه الحجاج ، وتم للحجاج أمر الجيش فاجتهد بنظامه وانضباطه ورحل الجيش يوما الا اعوان روح بن زنباع فوقف عليهم الحجاج وهم على طعام لهم قائلا ما منعكم ان ترحلوا برحيل الجيش فقـالوا له انزل وكل معنـا قال هيهـــات وأمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر وأمر بفسطاط روح بن زنباع فاحرق بالنار ودخـل على عبـدالملك باكيـا يقول ان الحجاج الذى كان فى شرطتي قد احرق فساطيطي فارسـل عبدالملك على الحجاج وقال له ما حملك على ما فعلت فقال ما انا فعلته بل أنت ، والله انما يدي يدك وسوطي ســوطك فلا تكسرني فيما قدمتني اليـه ، أجـل كانت كل مظـاهر الحجاج تدل على ان النفس التى بين جنبيه من نفوس المرده والجبابره تقترح ان يكون الجو لهـا خاليا وطريقها ســمحا فارغا وان تكون كل الظروف على ميولهـا فلابد وان يطرد كل عظيم عن العراق لان الحجاج فيه واذا وقف فى طريقها ولو شبح ضئيل هاجت مرتها وانتفخت عروقها بدم الانتقام وثار نزق الحيوانية الـكامن فعـادت لا تعرف الا ان تهرش وتزمجر وتخسف لا يمكن ان يرضيها غير ذلك واذا اتفق لمثل هذه النفوس حول وسلطان فهناك الويل والكروب ، لقد ترجم الحجاج نفسه فى عدة خطابات قال له عبدالملك يوما كل أمرىء ويعرف عيوب نفســـه فعب نفسك ، قال اني

لجوج حقود حسود وناهيك بهذه الصفات اذا توفرت لحاكم مطلق ، وكثيرا ما وجد الحجاج فى مقام لا يقتضى الغلظة ولكن لم يستطع تحويل معدن نفسه فيندفع الى الخشونة ، وما لوثته مع ابن الاشعث الغازي عبدالرحمن بخفيه ولم يكن لها سبب الا أنه اغلظ فى مكاتبه ابن الاشعث بلا باعث فكانت تلك الفتنة التى شهدها دير الجماجم .

وكان الحجاج قوى البنية مائلا الى السمنة ولا يزال العرق متصببا على جبينه وصدغيه من تحت قلنسوة قد احاطها بعمامة خضراء وكانت له مهابة تقصم ظهر الوافد علية وكان خطيبا شديد التهويل فى خطبه وكان اذا صعد المنبر تلفع بمطرفه ثم يتكلم رويدا رويدا فلا يكاد يسمع حتى يتزايد فى الكلام ويخرج يده من مطرفه ثم يزفر الزفرة فيقرع بها من فى اقصى المسجد ، عاش الحجاج أربع وخمسين عاما قضى منها عشرين عاما وهو عابث فى العراق والعراقيين ومات بداء السرطان سنة ٩٥ هجرية ودفن فى واسط وعفي قبره . ومن شذوذ الحجاج انه ولد بدون دبر ولكن ثقبوا له .

وقد عمل فى العراق لعبدالملك ولابنه الوليد ولم تعرف له صفحة فاضلة الا أنه شديد العصبية للعرب والعروبة ومن أكبر المتحسسين بالحس القومي وكان ينفذ السياسة القومية فى شدة ودقة فقد أمر عامله بالكوفة ان لا يؤم الاعربي وقد وسم ايدي النبط بالمشراط فقد قيل فى مولى من الموالي :

لو كان حياله الحجاج ما سلمت
صحيحة يده من وسم حجاج

وكان حريصا على اللغة والافصاح فى النطق بمفرداتها ومن ذلك أنه كان يتلو القرآن بمحضر أكبر علماء اللغة والقرائه فقال قولوا « حطة نغفر لكم » بفتح الحاء فقال له الشيخ حطة بكسر الحاء لا بالفتح فقال للشيخ أأتني بشاهد من كلام العرب والا اخذت اكثرك شعرا وقد امهلتك الليلة، فاضطرب الشيخ لانه يعرف ان الحجاج يفعل ما يقول فرجع الى ذاكرته الا ان الفزع والخوف ذهب بكل محفوظاته ، ولما خانته الذاكرة هرب ليلا وعندما ادركه الصباح خشى ان يدركه الطلب فاختفى فى حفيرة على جانب من الطريق ابينما هو لائذ عائذ واذا بفارس يعدو فلم يشك أنه بعض الطلب ولكنه اصغى واذا بالفارس ينشد قائلا :

ربما ضاقت الامور لها فرجة كحل العقل

فطار الشيخ فرحا وقال هذا هو الشاهد فرجه بكسر الفاء واومى الى الفارس فوقف وسأله لمن الشعر قال لروبه فقال أنه الحجة ودعا له بكل خير قائلا لقد اطلقت رقبتي ، فسأله الفارس عن الامر وقص له القصة ولما استوفاها قال له وبشارة ثانية اني ما خرجت من واسط : لا وهلك الحجاج، ولما نزل الحجاج واسطا نفى النبط وكتب الى عامله فى البصرة وهو الحكم بن أيوب يقول اذا اتاك كتابي فانف من قبلك من النبط انهم مفسدة للدين والدنيا ، وكتب اليه عامله لقد نفيت النبط الا من قرأ منهم القرآن وفقه فىالدين فكتب له الحجاج اذا قرأت كتابي هذا فادع من قبلك من الاطباء ونم بين ايديهم ليقفوا على عروقك فان وجدوا فيك عرقا نبطيا

قطعوه ، ولعل العصبية للعرب هى التى حملت الحجاج على اختيار موضع واسط الذى قصد منه ان يحتل العرب تلك الانحاء المزدحمة بالنبط وبقايا الفرس المنكمشين من البصرة والكوفة لمزاحمة العرب الفاتحين لهم هناك حتى كان موضع واسط وما صاقبه مركزا مهما للنبط وبقايا الفرس ، ومن مظاهر الحجاج القومية حمله لكاتبه صالح بن عبدالرحمن على نقل الديوان وجريدة المال من الفارسية الى العربية أنه صعب عليه بقاء الدولة العربية بدون ديوان عربي ، فاهتم صالح بنقل الديوان وشق ذلك على أدباء الفرس فتوسلوا الى صالح بالتحول عن عزمه ولما استيأسوا منه قالوا له قطع الله اصلك من الدنيا كما قطعت اصل الفارسية ، ومن اثار القومية الجبارة فى الحجاج أنه أول من ضرب العملة العربية الاسلامية هذ على الرأى الشايع ، وقد كانت الحكومة الاسلامية تستعمل النقد الذى تجده من المسكوكات للامم التى سبقتها بعد طبع كلمة « طيب » أو كلمة « جائز » عليها ، أما على رأى السيد نور الدين بيهم صاحب المقالات فى المسكوك العربى المنشورة فى مجلة الكشاف البيروتية ان أول مسكوك عربي كان فى عهد علي عليه السلام فى الكوفة وان السيد نور الدين وقف على بعضها ، ومن اثار الحجاج حفره نهر الصين لما نزل كسكر واحدث هناك مدينة «النيل» توجد اليوم في المكان الخراب بين فرات الحلة ومدينة الحي على الغراف تلول تعرف باسم « الصينية والنيلية » وقد طهر نهر « نرس » الفارسى وسماه نهر النيل وعمد الى ضياع

كان ابن « روح » استخرجها لمعاوية من موات مرفوض ومن نقوض مياه ومغايص واجام فضرب عليها المسنيات وعمرها وحازها لعبدالملك ومن اثاره :

« واسط »

قال الاصمعي وجه الحجاج الاطباء ليختاروا موضعا يبني عليه مدينة فقالوا ما اصبنا مكانا اوفق من موضعك هذا في هبوب الريح وانف البرية ، فشرع الحجاج في عمارة واسط عام ٨٣ للهجرة في مكان شديد السبخة كثير الحر والسموم ولكن الحجاج احكم البناء وحفر الانهار وكثر الزرع والغرس حتى أصبحت مدينة طيبة ذات قصور وبساتين للنخيل الكثير الكثيف ، وقد جمع عليها الوفا ، من الفعلة ، وكان العمل اجباريا حتى ضجر الناس فقد ذكر المبرد في شرح المثل « تغافل واسطي » ان الحجاج كان يتسخر الناس في البناء فيهربون وينامون بين الغرباء في المسجد فيجيء الشرطي ويقول على غره يا واسطي فمن رفع رأسه أخذه ولحقه بالعمال فكانوا بعد ذلك يتغافلون عن صوته ، وقد هدم الحجاج لعمارته كثيرا من المدن والقرى ونقل اخشابها وابوابها حتى ضج الناس من تلك التعديات ، وقد تكررت هذه الطريقة غير الحميدة في مواضع لقد نهضت الحلة من بابل وبغداد من المدائن وسامراء الحديثة من سامراء القديمة والكوفة من الحيرة والنجف من الكوفة وامثال ذلك كثيرة ، ونقل الحجاج الى مدينته خمسة ابواب من مدينة زندرود والدوقره وشرابيط

وغيرهـا ، وذكر ابن الخطيب ج١ صـفحة ٧٥ ان ابا جعفر المنصور نقل تلك الابواب من واسط الى بغداد ، وكانت بداية نفقـة الحجاج على انشاء واسـط ٤٠ مليون درهم لم يصرفها على غير قصره والقبة الخضراء والجامع والسـور والخندقين ونشأت المدينة أولا على الجانب الايسر لدجلة وقابلتها مدينـة اخرى على الجانب الايمن بمكان مدينـة كسكر الفارسـية ، وقد كان لواسط اربعة ابواب باب الكوفة وباب البصرة وباب الاهواز وبعد ذلك باب بغداد ، وللجانب الشرقى منها سور، وكان عمود دجلة يشطرها شطرين يربطهما جسر طوله ٦٨٠ ذراعا معقود من السفن على دجلة التى كانت تستقيم مادة نابها حتى تهبط عن واسط فتنقسم الى انهر منها نهر ميسان الذى كانت عليه مدينة ميسان الفارسـية التى طويت ولم يبق منهـا الا البلد المعروف بـ « العزير » لان العزير مدفون هناك فذهب القصر وبقي القبر ومنها نهر دقله الذى نهضت عليه واسـط الثانية بعد خراب الاولى والعراقيون اليوم يسمونه الدجيلة ، ومنها نهر الغراف الكثير البركات وأول ذكر للغراف يتصل بالقرن الرابع للهجرة فقد جاء فى الجزء السادس من ديوان الحسين بن الحجاج ذكر للغراف فى قصيـدة يهجو بها ابن سكره مطلعها :

يا شـاعرا أبطحي القفـا بغـير خلاف

ومنها يقول :

لـكل وافرة الخصر نضـوة الا ردافى
لهـا مثير حرا مثـل فوهـة الغراف

ونهر الغراف هذا هو الذى نشأت عليه واسط الثالثة ويسمى صدره اليوم « الاعمى » لان الجرى تحول عنه وصار يجرى بين يدي مدينة الحي تلك المدينة التى نهضت على انقاض واسط الثالثة وقد انتقل اليها اهل واسط فمدينة الحي هي واسط اليوم ومنها نهر الفضل ونهر جعفر الذى له اليوم اثار فى غراف (البدعة) تسمى الجعفري ، ومنها نهر الصلة كل هذه الانهر متشعبة من دجلة العمود التى كانت بعد ان تهبط من واسط تنقسم الى هذه المجارى وكان العشارون يقيمون على محل الانقسام لاستلام الاعشار من السفن المنحدرة والمصعدة وكان هناك حي يسمى حي العشارين ، فارتىء بعض الباحثين ان بقيته اليوم مدينة الحي واني اعتقد ان هذه المدينة بقية للمدينة الفارسية التى كانت على فرع لدجلة هناك يسمى « زندرود » وترجمة هذه التسمية « النهر الحي » وهو اسم المدينة الفارسية التى كانت عليه فالحي مأخوذ من مادة الحياة وليس هو بمعنى مجموعة منازل ، وهذا يجتمع مع قول القائلين ان اسم النهر هناك « النهر الحي » لانهر الغراف .

انما كان الغراف وصدره تحت الحي ذلك الصدر الذى يسمى « الاعمى » ، لقد كانت دجلة فى عهدالساسانيين تجرى بين يدى « المذار » وهو بلد فارسى دارس لم يبق منه غير مشهد عبدالله بن علي ، وموقعه وراء البلد المعروف اليوم بـ « قلعة صالح » ثم تحول مجرى دجلة الى جهة واسط مما يلي مدينة « السن » وهو بلد دارس ، ثم تحول عمودها

جاريا بين واسط والمذار وهو مجراها اليوم المسمى بشـــط العمارة وكانت دجلة تســـمى أم الموات لانها كثيرة التحول فيموت ما كان عليها من الحياض الزراعية ودجلة المتحولـة هي دجلة العوراء التي كثيرا ما تعور متونها لا دجلة بغداد .

« محلات واسط »

اسلفنا ان الطرف الشرقي من مدينة الحجاج يقال لـه واسط والغربي يقال له كسكر وقد عرفنا من محلات واسط محلة الانباريين وفيها جامع البلد ومحلة الزيدية وهي مسكن العلويين وشـيعتهم ومحلة الزبيدية وفيهـا الحقول والبساتين ومحلة الرزازين وهى المحلة السفلى بواسط والمحلة الشرقية لوقوعها شرقي واسط ومحلة الحزاميين وهى فى شرقى واسط ومحلة برجونية وهى من محلات واسط ولكن ترتفع عنها قليلا واليوم يوجد مشهد لسعيد بن جبير وهو رواق عقـدت عليه قبة وهذا المشهد هو البقية من برجونية ، ولواسط محـلات كثيرة لم تقف على اسمائها وكان في وسط المدينة بناء شامخ ضخم اتخذه الحجاج سجنا ويقال له « ديماس » وقد اعتنى الحجاج بنظام البلدة ووسع شـوارعها ورتب الشـرطة فى رؤوس الشوارع ومن ذلك ما جاء فى كتاب المستظرف أنه لما مات الحجاج فتح باب ديماس فانطلق الوف المساجين وهرع منهم رجل اشتد فى العدو ولما باعـد عن المدينة رفع صـوته قائلا :ـ

اذا ما تجاوزنا مدينة واسط
خرينا وبلنا لا نخاف عقابا

فاستوقفه الناس وسألوه فذكر أنه رجل غريب دخل مدينة واسط وقد نازعته الحاجة الى التبرز في زاوية من شوارع البلد وسرعان ما أدركه الشرطي وذهب به الى السجن لاقتراف تلك الجناية وقد لبث في السجن عامين ، وبرغم تلك العناية كانت واسط شديدة السموم كثيرة الرمال وهذه الرمال كانت تهب عليها من الغرب وجاء ذكر هذه الرمال في كتاب حضارة الاسلام في دار السلام للكاتب طه المدور الذي وضع نفس موضع رحاله قام بجولة في القرن الرابع للهجرة واستقصى اخبار تلك السنين فوضعها في كتاب والى اليوم يوجد أثر لتلك الرمال بين مزارع الغراف وبين الاراضي الخراب التي كانت سقيا لفرات الحلة والغرافيون يسمون موقع تلك الرمال بـ « خط الرمال » .

وهذا الخط يمتد بصورة تلول سيارة ومتنقلة وقد شاهدت بعضها فكانت في عام بمكان وفي غيره بمكان آخر ، والمزارع الخضراء الكثيرة ومن حولها الانهار الكبيرة لطفت الهواء وزادت في عذوبته صبوحا وغبوقا وقد اطرى ذلك كثير من الادباء ومن ذلك قول ابي شجاع الواسطي :

يا رب يوم مر لي في واسط
جمع المسرة ليله ونهاره
وقميص دجلة بالنسيم مفرك
سكرى تجر ذيوله اقطاره

وقد بقيت تلك العذوبة لواسط حتى انفتقت فى اسفل كسكر واستوسع الخرق فكون بطيحة اثرت على مناخ واسط وجعلت هوائها غمقا ذا وباله ، وتبطح الميـــاه هنـاك ليس بالطارىء فقد كانت بطيحة الغراف قبل نهر الغراف كما وان تفتق دجلة فى تلك الانحاء لا يزال يعاود والغرافيون يسمونه « موحان » وقد شاهدت مظهرا منه عام ١٩١٤ ــ ١٩١٥ فى اثناء الحرب العامة الاولى وكابدت ما كابدت من سفالة المقام ووخامة الهـواء والى بعض ذلك الويل يشـــير الواســـطي هبة الله :ــ

لله واســط ما أشهى المقام بهـا
الى فؤادي واحـلاه اذا ذكـرا
لا عيب فيها ولله الـكمال سوى
ان النسيم بها يفسو اذا خطرا

والى شبه ذلك يشير البحتري فى قوله :ــ

حنانيك من هول البطايح سائرا
على خطر والريح هول دبورها
لان أوحشتني جبل وخصاصهـا
فما انستني واسـط وقصـــورها

وجبل هذه التى يذكرها البحتري قرية كبيرة ذات بناء واسواق كانت على ضفاف دجلة بين موقع الكوت والنعمانيـة وكان منها يعبر الطريق الاعظم بين واسط وبغداد وقد سف عليها الماء وفى وقت الجفاف تظهر اليوم هنـــاك اثار عمارة تسميها الاعراب « جنبل » .

« سكان واسط »

كان النبط محيطين بواسط وكانت تلك الانحاء مزدحمة بهم ولكن الحجاج بعد ان أنشأ مدينته على اكتافهم وتسخرهم وبيوتهم وقراهم لعمارة واسط اقصاهم عنهـــا وعن ضواحيها وأمر باخراج كـل نبطي وقـــال لا يدخلون مديننى فانهم مفسدة ، وأصبحت واسط مأهولة بالعرب وبعد الحجاج تراجع اليها الفرس والنبط وتزاحمت بشتى الاقوام ويظهر ذلك من قول بشار بن برد فى هجو أهل واسط :ـ

ايلتمس المعروف من أهـل واسـط
وواســـط مأوى كل علج وســاقط
علوج وانبـــــاط وخوز تجمعت
شـــرار عباد الله من كل غائط

ثم تغلبت القومية وكثرت الهجرة من البغاددة فلم يكن في القرن السابع والثامن والتاسع غير العرب واكثرهم من بني أسد وبني حطيط وبني ليث وعباده وعقيل وبني سلامه وقـد ذكر صـــاحب مجالس المؤمنين وجود قبائل مياح أما اليوم فتوجد هناك قبائل عقيل وعباده ومياح .

« الحالة الادبية في واسط »

كان للادب والعلم سوق فى واسط وفيها نبغ كثير من العلماء والادباء والشعراء ففي كتب التراجم ودواوين التاريخ مئات من هؤلاء الفطاحل والى ذلك يشـــير الســـيد محمد المشعشع الواسطي مؤسس عائلة موالي الحويزة :

مدينتا أرض العراق بواسط

مدينة أهل العلم والفضل والعمل

وقد تخصصت مدرسة واسط لعلم التجويد والقرائة وأصبحت محطة علمية لطلاب ذلك العلم ، يفدون عليها من سائر الاقطار وتأسست فيها بعض المعاهد العلمية ومن جملتها مدرسة الغرباء التى كانت تشتمل على ثلثماية خلوه ، وفى الاقلام العربية القلم الواسطي وهو مشهور كالقلم الكوفي والحيري والانباري وفيه مظهر من مظاهر تدرج الخط العربى ورقيه ، ولم يغفل كتاب آداب اللغة العربية شأن واسط بل دونوا كثيرا من الكتب فى تاريخها وحوادثها وتراجم بويتاتها والمشاهير من رجالها ولكن ذهبت تلك النفائس وانطمست فعادت واسط من البلاد المنسية ، وقد عثرنا فى بعض المراجع على ذكر بعض الكتب التى وضعت فى تاريخ واسط منها كتاب ابي عبدالله محمد بن سعيد الدبيثي المتوفي ٦٣٧ والتعليق عليه للجلابي وتاريخ السيد جعفر المعروف بتاريخ الجعفري وتاريخ بخشل وتاريخ اسلم بن سهل هذا بعض ما وجدنا له ذكر وكل هذه لا يوجد لها اليوم أثر على ما اعلم وقد قامت فى واسط نقابة للطالبيين وقد وجدنا ذكرا لجماعة من نقبائها فى كتاب الانساب لمؤلفه مؤيد الدين واسم الكتاب المثبت المصان بذكر سلامة آل عدنان فمن نقباء واسط مؤيد الدين عبدالله المتوفي ٧٨٧ وأبو عمر المعروف بجلال الدين وأبوه محمد قوام الدين وأبوه عبدالله وأبوه طاهر وأبو علي سالم وأبو اليعلا وأبو البركات محمد والامير محمد بن

الاشتر ومحمد بن عبدالله الثالث وعلي بن عبدالله الثاني .

«الحالة الاقتصـادية في واسط»

كانت واسط فى موقع اقتصادي مهم يشغله أهل التجارة من بغداد الذين استوطنوا واسطا وذلك لكثرة ما يتسنى لهم من العمل هناك وهو الموضع الواقع فى متوسـط العراق بين البصرة والكوفة وبغداد والاهواز وبلاد الجبل ، فكانت واسط الطريق التجارى العظيم الذى تصعد اليه السفن من البصرة وتنحدر من بغداد ، وواسط كثيرة الخصب وافرة الحصيلة والـكتب حافلة باخبار رخائها وآخر من ذكر رخاءها ياقوت الحموي .

وقد كان للحركة الاقتصادية هناك أثر كبير فى ميزانية الدولة ووفور المال وهذا هو الذى شجع الحجاج على تثقيل الجباية فقد ذكر ابن الاثير ج٥ صفحة ١٩ ان الحجاج تشدد فى وضع الضرائب على كور واسط حتى ان الامراء من بعده كانوا يستنكفون عن ولاية الخراج فى واسط خوفا من نقصان الخراج اذا هم خفضـوا الضريبـة والاسـتمرار على ظلم الناس اذا راموا جباية ما كان يحمله الحجاج الى الخليفة من المال وقد حضر ابن هرقل ارتفاعها الى الديوان بمدينة السلام عام ٣٥٨ للهجرة فكانت ستة ملايين من الدراهم ، وهـذا الخصب هو الذى حرك السيد محمد المشعشع وولده المولى أعلى لاحتلال واسط فجر عليها الخراب والدمار ، لقد كان السيد محمـد فى مناجزته لحكام الحويزة كلما قلت مؤنة

جيشه واحتاج الى الميرة تذكر الخير فى واسط فيتراجع اليها ليتمون ولكن سكانها يمنعونه عنها فيشتبك معهم على أبواب واسط ، وكم من مرة حاصرها باصحابه ونهبها حتى صدروا وهم بجر الحقائب كطيور تحوصلت ثم صارت .

« التجدد والدثور في واسط »

تلونت مظاهر واسط وتنقلت بين محنة تارة ورفاهية اخرى حسب الظروف ولم اعثر على بسط جامع لاخبارها التى وصلتنا متقطعة تنقص سلسلتها حلقات كثيرة فاضطررت الى التقاط كلمات العلماء التى لها مساس بالبحث وجاءت فى غضون ابحاثهم بغية ان اؤلف منها مجموعة عما طرأ على واسط من تجدد ودثور ، عاشت واسط الاولى حتى القرن التاسع للهجرة ، وقد تعرفت على شيء عنها فى القرن الاول وبسطته فيما مر أما القرون الاخر فسوف نوافيكم بموجز عنها اعتمدنا فيه على كتب حضارة الاسلام ومجالس المؤمنين وابن الاثير والابشهي والمسعودي والبلاذري وابن حوقل وابن جبير وابن بطوطة وابن السوادي ، كانت واسط فى القرن الثانى مدينة طيبة الاقليم ومبانيها من الاحكام بمكان سام ومنها القصر الذى انهضه الحجاج فانه لم يزل ماثلا الى الربع الاخير من القرن الثانى والناس يقولون عنه الخضراء وله قبة مشهورة فى المبانى الاسلامية حتى قيل أنه ما بني لاحد مثلها قبل الحجاج وفيه احواض من رخام كثيرة يرقي اليها الماء من دجلة اعظمها حوض من الرخام الاخضر فى

مجلس به سرير مذهب يقال أنه كان مقعد الحجاج في مجالسه العامة ، وهذا القصر بهيج مزخرف بأنواع الزينة ، وكانت في واسط فنادق مطلة على دجلة حيث الجسر المعقود ، وفي واسط سوق شهيرة للخيل وكان لها موسم معلوم من السنة وقد كانت المدينة زاهية في بداية هذا القرن ومن اعمر بلدان العراق ولكن وفد عليها الطاعون الجارف سنة ١١٦ هـ ومن بعد تلك الكارثة نزلت بالناس السنون واخذتهم المجاعات فأتى على واسط الخراب والانحلال وتجافى الناس عنها بما توالى من الفتن التي وقعت في صدر الدولة العباسية ، الى ان أستقر الوضع فسارع أرباب التجارة الى استيطانها وعادت الى زهوها القديم . وكانت في القرن الثالث والرابع مدينتين عظيمتين على جانبي دجلة يحدها من الغرب الارض الخراب بعد مزارع يسيرة وهي شجراء كثيرة الخصب هوائها أصح من هواء البصرة ورقعتها واسعة ونواحيها فسيحة وعماراتها متصلة ولم تكن حولها بطايح ، وقد اعرست واسط في غضون القرن الخامس والسادس بالغة في الزهو والعمران من الحضارة وراجت فيها سوق الادب والعلم وتوافرت لها السكينة والرفاهية وتخرج فيها الكثير من الادباء والعلماء مثل ابن المعلم وابن السوادي وابن ابي الصقر وابن الدهان وابن المظفر والدبيثي ومئات من امثالهم ، وهاجر اليها من بغداد الوزراء والامراء وتكاثر فيها البغاددة وانحدر اليها الخليفة المعتمد ، وبعدها صارت مليئة بالحوادث والفتن وتنازعها امراء البطايح التي امتدت اليها ونشأت حولها ،

ففي بداية القرن الخامس حدث بواسط خرق فى اسفل كسكر فاستوسع واعورت دجلة من عدة مواضع فاهملت وتكونت بطايح مرة اخرى ، وفى القرن الثامن شاهدها ابن بطوطة فوصفها بانها مدينة حسنة الاقطار كثيرة البساتين والاشجار فيها اعلام يهدى الى الخير شاهدهم وأهلها من خيار أهل العراق ، وفيها مدرسة عظيمة حافلة ينزلها القادمون لتعلم التجويد بالقرائة عمرها الشيخ تقي الدين عبدالمحسن الواسطي وكان يعطي المتعلم فيها كسوه ويجرى عليه نفقه لكل يوم وكان يجلس هو واخوانه واصحابه للتعليم فى المدرسة ، وجاء القرن التاسع للهجرة على واسط وهى كما وصفها صاحب جريدة العجائب من اعمر بلاد العراق وعليها المغول لولاة بغداد زاهية العمران برغم الهزاهز والمحن التى تعاورت عليها وآخر عهدها بالمحن الغارة التى شنها عليها السيد المشعشع سنة ٨٤٤ هـ ولكن الواسطين كشفوه عن مدينتهم فتراجع وملء جوانحه عزيمة ورغائب للاستيلاء على تلك المدينة الغنية بيت احلامه وامانيه ، وقد انتقلت هذه اللوعة من الوالد الى الولد ففي عام ٨٥٨ هـ اعتزم المولى على بن محمد المشعشع على تدويخ العراق وانتزاعه من يد المغول فهاجم واسطا وقاومه أهلها وعلى رأسهم الحاكم المغولي أمير أفندي ، فطوقت جيوش المولى علي المدينة بعد ان قلعت الاشجار والنخيل وقد ابلى الواسطيون أحسن البلاء ولكن عبثت فى مساكنهم قذائف المنجنيق وخربت العمارات وقتلت كثيرا من الناس وشعروا بخطر الاحتلال فتآمروا مع عامل المغول على

الجلاء والانحدار الى البصرة ولكن بعد تخريب المدينة التى يغارون عليها من استلام الغازي لها سالمة فخربوا واسطا ، واحتلها المولى علي ركاما واقام فى خراباتها عاملا له يقال له « دراج » وقفل عنها ، وبهذا اندثرت واسط الحجاج وقامت قريبا منها واسط الثانية وذلك ان الواسطيين بعد انحلال أمر المولى علي وقتله على أبواب بغداد عندما هاجمها تراجعوا واسسوا واسط الثانية تحت الاولى بمسافة هينة وفي قربها على نهر دقله ولم يكن لهذه الثانية شأن كبير كما انها لم تعش اكثر من قرنين حتى تنازلت عن كونها مدينة الى قرية نشأت على الجانب الغربي من الثانية وتبعد عنها قليلا وهي واسط الثالثة التى كانت على فوهة الغراف والتى كانت تأخذ من دجلة يوم كانت تستقيم من هناك والغرافيون يسمون تلك الفوهة أو ذلك الصدر بـ « الاعمى » ولما تحولت دجلة تحولت فوهة الغراف الى ما يقابل الكوت فعمي ذلك الصدر وبقيت واسط الثالثة الى أواخر القرن الثالث عشر للهجرة ونشأت مدينة الحي ويوجد اليوم كثير من الواعين الذين شاهدوا واسط الثالثة .

« بقايا واسط الحجاج »

تلول وخرابات تقع فى الشمال الشرقي للشطرة وتبعد عنها ٣٦ ميلا ولا أثر بارز لواسط غير باب محرابي مقوس من أعلاه قليلا وعليه كتابة غير جلية لان الرياح والامطار خرشتها وطمست كثيرا منها والى جانب الباب مغاره سقط

برجها فهي عمود يلوح من بعيد ، تراه شاخصا في القفر كأنه بقى ليكون رمزا على عظمة السلف الذين انهضوه ، ولا ترى في ذلك القفر غير رمم اطلال وحجارة جرداء ، وتلك هي المدينة العظيمة ذات البساتين والنخيل الذى يفوت الحصر ، وجذوره يشاهدها العابر حتى اليوم ، ويظهر ان ذلك الباب هو باب مسجد واسط وهو مسجد الانباريين .

« كور واسط »

لم يكن اسم واسط مقصورا على المدينة بل كان يطلق على كور واسع يشمل ما بين الاهواز والنعمانية وعذار الحلة وفرات الناصرية ، وكانت واسط فى بداية أمرها مركز العمل الاداري في كل العراق ، وبعد ذلك أصبحت تابعة لبغداد في العهد العباسى والتاتاري والمغولي ، ثم تبعت البصرة في أوائل العصك العثمانى ، فقد كان المتسلم الادارى فيالبصرة يضاف الى عمله عمل الجزائر وواسط ، ويراد كور واسط ، واليك بعض المواقع من ذلك الكور .

« زندرود » مدينة فارسية قرب واسط ، « سابس » بضم الباء نهر فارسى كبير وعليه قرى كثيرة ، وهي تلول مبثوثة بين مدينة الحي والعدوة اليمنى لدجلة فى الموضع المعروف بـ « جزيرة الرفاعى » « ساسى » تل على نهر فارغ شمال الشطرة بمسافة هينة ويسمونه اليوم « ساسه » قرية فارسية تحت واسط وينسب اليها أبو المعالي ابن بدر الساسى «بزوفر» ويسمونه اليوم أبو زوفر تل كبير حول صدر الغراف

وراء الناحية الادارية المسماة بـ « الموفقية » والتى كانت قائمة على النهر الموفقي ، ذلك النهر الذى اقام عليه الموفق العباسى عند محاربته لصاحب الزنج فى واسط ، اصل هذا النهر فارسى مثل اسمه وكان من اعمال قوسان الفارسية الواقعة قرب واسط « كسكر » بالفتح ثم السكون من أكبر طسوج الفرس فى العراق انها مدينة سهلية ذات احازات ونواح ، قصبتها « خسرو سابور » وهي الجانب الشرقى من واسط وكانت قبل الاسلام مملكة مستقلة وفى زمن الفتح كانت قطيعة ـ لترسى ـ ابن خالة كسرى أما خمائل كسكر وحقولها فمشهورة فى العهدين الاموي والعباسى ، وكانت البقية منها تسمى « عمر كسكر » بضم العين وكان ديرا للنصارى اخذاً من قولهم عمرت ربي اي عبدته ، وهو منتزه كبير كان يسمى « عمر واسط » و « عمر كسكر » ، وللنصارى احتفاء به واهتمام ، « برجوينه » محلة من محلات واسط كانت منتزها للواسطيين ، تكثر فيها الاشجار والازهار والعمارة الانيقة لكنها اليوم صعيد زاري ، والغرافيون يعرفونها بقبر سعيد وهو سعيد بن جبير التابعي الشهير قتيل الحجاج وله مشهد هناك يحيط به حصار وعليه قبة يطوف به الهلاك ويقصده الزوار ، « أم عبيده » قرية فوق واسط بينهما طريقان برا ونهرا ، وقد كانت عامرة شجراء يكثر فيها الغرس وقد زارها ابن بطوطة ، وذكر صدرا من اخبارها وهي اليوم في قفر واسع يعرف بـ « جزيرة الرفاعي » وليس فيها شيء مائل غير رواق السيد أحمد الرفاعي الذى يلوح بقبته للسالكين

وقد نهض هذا الرواق فى القرن السادس للهجرة ولا يزال يرمم وآخر تجديد له على نفقة العثمانيين عام ١٣٠٩ رومي على يد هداية باشا والي البصرة ، ولهذا التجديد قصة بديعة تدل على سوء الادارة فى ذلك العهد ، لقد كان شيخ الاسلام أبو الهدى يعتنق الطريقة الصوفية الرفاعية ، وكان مقربا عند السلطان العثماني ، فطلب من السلطان الاهتمام بأم عبيده مثوى السيد أحمد الرفاعى ، فانفذت المراكز العالية فى فروف اوامرها الى العراق بتمصير جزيرة الرفاعي وحرث حوضها الزراعي وانهاض مدينة حول مشهد الرفاعى واجراء نهر أم عبيده بالتطهير والكري وخصصت لذلك مبلغا خطيرا من المال، فما كان من رجال الادارة الا ما يجلب الدهشة حيث انهم عبثوا بالمخصصات وازدردوها وابلغوا المراجع العالية بانه قد تم كل شيء وقامت المدينة الخيالية يظللها النخل الخيالى على ضفاف النهر الخيالى وشحنوا قسما من تمر البصرة وارسلوه الى فروق تبركا بتمر مشهد الرفاعى ، «الزبيدية» غربى نهر الغراف وهي اليوم مزرع عامر ، وموقعها قبالة واسط وتبعد عنها بمسافة ثلاثة فراسخ ، فيها اكام مبثوثة ذكرها الحموي ويظهر انها غير الزبيدية التى هي محلة من واسط ، « العمرانية والشاهانية » تلان كبيران فى جنوب الشطرة ، وهما بلدان لعمران ابن شاهين الخفاجى أمير الغراف والبطايح ، سميتا باسمه واسم أبيه ، ويوجد فى مكان آخر من الغراف تل يقال له العمرانية ، وهي بلدة اخرى لعمران « الزاوية » مزرعة كبيرة فى صدر الغراف ، فيها رمم اطلال ذكرها الفيروز

ابادي انها بليدة بواسط ـ الرصافة ـ تلول متداخلة تقع شمال الشطرة وهي رصافة واسط ذكرها الحموي ـالداخن ـ تل يقع فى شمال الشطرة وهذا التل أحد المناظر التى اتخذها الحجاج بين واسط والاهواز حيث المقر العسكري العربي هناك وكان مركز القيادة فى واسط فاذا احتك الخوارج بالجيش واحتاج الجيش الى مدد دخن أهل الاهواز فتدخن المناظر كلها نهارا وتوقد النار ليلا وبذلك يصل النبأ فتتوجه النجدة ويوجد تلان آخران فى تلك الانحاء سميا « المناظر » ساقية سليمان ـ قرية بواسط ـ شلمغان ناحية فارسية من نواحي واسط ـ شافيا ـ من قرى واسط بناحية نهر جعفر « الشرابيط » كورة كبيرة من أعمال واسط « برجلان » من قرى واسط وهي اليوم موجودة فى البطايح ، « الافشوله » قرية غربي واسط ـ « الجامده » قرية كبيرة من أعمال واسط وهي التى نشأ بها عمران بن شاهين ومكانها اليوم معروف بالبطايح ، ـ الحوز ـ الخسروانية ـ اوداز ـ بثا ـ الرياحية ـ كل هذه وغيرها كانت قرى عامرة فى كور واسط وهناك مدينتان فارسيتان هما ـ الدوقره ـ والشرابها ـ لا يعرف مكانهما اليوم هذا غيض من فيض من كور واسط الذى درس وانطمست اثاره ولعل الله يبعث من ينشره مرة اخرى ولابد للباحث عن البصرة وواسط ان يذكر ما بينهما من صلة وارتباط فلابد من البحث عن البطايح وتطوراتها حتى يكون القارىء قد الم بالموضوع فما البصرة وواسط الا تطور

من تطورات البطايح والبطايح هي الصلة بين البصرة وواسط كما وانها من اغرب المهابط للعرب *

« البطـايح »

البطايح جمع بطيحة بفتح الباء وكسر الطاء يقال تبطح الوادي اذا استوسع فالبطيحة مسيل واسع ومجتمع مياه سائبة ، والبطايح كثيرة ولكن المعروف منها بطايح ما بين البصرة وواسط والحويزة وهى تجمع سيب دجلة والفرات ، كانت دجلة العوراء أم البطايح وكانت تستقيم من المذار وهو اليوم قلعة صالح وكانت بطايحها فى سواد بغداد أو كما قيل فى « بطن جوخى » ولكن بعد ان تحولت وسالت بين يدي واسط كثر الاختلاط بينهما وبين المتسيب من ماء الفرات فكان فيضا مادا مما وراء واسط الى ظهر البصرة ، والبطايح هذه قديمة العهد فى العراق حتى أنه لا يعرف بدء وجودها ، وقد وجد العلماء ذكر وجودها فى الرقيم المسماري وكانوا يسمونها ، ــ الاجم ، ولم يذكرها العر بذكرا تاما أما اليوم فقد مات ذكر البطايح واطلق على البقية منها اسم ــ هور ــ وزان ثور ــ برق ــ وزان ــ زجل ــ وواحدتها برقه وهي من لغة سواد العراق يريدون بها البطيحة ، ولم تستقم البطايح على حال وانما كانت كما شاء لها الاتفاق والحوادث فربما كانت كالبحر العجاج وربما هبط مستوى مياهها فصارت ضحضاحا تغطيه عذبات عيدان الاسل والقصب حتى تبرز كغابة كثيفة وقد يبلغ بها الجفاف حتى تنحسر

عن أرض خضراء الاديم ، فيمكننـــا ان نضبط لها حالات ثلاثا لم يظهر انها تجاوزتهـا بل ما زالت تتردد بين الثلاث ـ البطايح ـ الجزائر ـ الجوازية ـ ولنبدأ بذكر البطايح لانها المظهر الاول ـ موقعها ـ السبب المكون لها ـ مساحتها ـ .

« موقع البطايح »

لقد مر عليك ان دجلة العوراء كانت تجرى بين يدي المذار وهو بلد فارسى دارس لم يبق منه اليوم غير مشـهد عبدالله بن علي وموقعه شـــرقي دجلة وراء البلد المعروف بقلعة صالح ، وكان موقع البطايح فى ذلك العهد وهو عهـد الساسانيين حيال بطن جوخى وكانت تلك البطن نهر وكورة فى سواد بغداد ، ولما تحولت دجلة بقيت تلك البطايح وانقطع السيب عنها فصارت صحاري ومفاوز يصيب المارة فيها سموم وقيظ شديد أيام الصيف ، وتحولت دجلة العوراء الى ناحية واسط وجرت بين يديهـا وصبت فى انهار سبعة ومجراهـا كواحد من تلك الانهر أما الستة الباقية فهي نهر الفضل ونهر الملك ونهر جعفر ونهر ميسان ونهر الغراف ونهـر الصلة ، ولما اتصلت دجلة بأرض ميســـان سميت تلك الشعبة بنهر ميسان وميسان هذه كورة واسعة يقع بلدها الشهير ببلد ميسان بين واسط والبصرة ولم يبق اليوم من تلك البلدة الا مشهد العزير وهو معمور على حالته القديمة تخدمه اليهود وتحج اليه فميسان اليـــوم هي بلد العزير وموقعه بين قلعة صالح والقرنه ، ولما استقامت دجلة من هناك انبثق فى أسفل دجلة

كسكر بثق عظيم واغفل ، فتغلب الماء على ما كان منخفضا من الارضين وبقي ما كان مرتفعا فصار جاجي واكنه للملتجئين وتكونت بطايح امتدت من اطلال واسط الى ظهر البصرة ، وهذه هي البطايح الشهيرة فى التاريخ العربى ثم توقفت دجلة عن مجراها بين يدي واسط وتفرقت الى انهر ولكن عمودها شق له واديا بين واسط والمذار وهو مجراه اليوم مارا بمنازل ربيعة ومنازل طي بني لام ، وجفت بعض بطايح واسط وأصبحت بيداء موحشة تسمى « جزيرة الرفاعي » كما ان بطايح الحلة المتكونة من سيب الفرات التى كانت تتصل بواسط ابتداء من العذار وهو ضفاف تلك البطايح وسمي عذار لخضرته قد جفت فأصبحت جزيرة تسمى « أم سترين » حيث يسترها الفرات من جهة ودجلة الغراف من جهة اخرى ، أجل جفت بطايح واسط ولكن لم تجف كل البطايح بل انحسر الماء عن الكثير منها وظهرت كورة واسط وهي سقي الغراف فكانت حوضا زراعيا على شكل شبه جزيرة بين وادي الفرات الاسفل ودجلة العوراء ، وأصبح موقع البطايح ممتدا من بلد العزير الى أعلا سوق الشيوخ والخميسية عرضا ومن هناك الى القرنه فشط العرب طولا ، وهذا التحديد يشمل رقعة واسعة من بز الغراف وهي الامكنة الواقعة بين ـ البدعة ـ والسديناوية ـ الى الحمار مثل الصديفة ـ وأبو الاطرش ـ والغموقة ـ وأم الفطور ـ والحصونه ـ وكثير غيرها .

« مساحة البطايح »

جاء في الاعلاق النفيسة ص ٩٤ انها ٣٠ فرسخا في ٣٠ وانها رقعة واسعة واقعة ما بين واسط والبصرة والحويزة، يحدها ميسان من جهة ودجلة بغداد ما بين « جبل » وفم الصلح « وهو اليوم موقع الكوت » ومن جهة يحدها فيض الفرات بين منازل بني أسد ومنازل بني منصور . تحت سوق الشيوخ ، ومن الشمال تحدها بادية العراق حوالي الخميسية و « تل لحم والغبيشية والارطاوي واعلوي والشعيبة » وذكر المستشرق « ولفرد تيسكر » صاحب محاضرة سكان الاهوار ان مساحة الاهوار الواقعة في جنوب العراق ستة الاف ميل مربع ، وذكر شاكر مصطفى سليم ان مساحة الاهوار تقارب العشرين ألف كيلو مترا مربعا وان طول هور الحمار يبلغ السبعين ميلا ، وهذه المساحة التي ذكرها تبتدأ من العمارة الى القرنه كما وان هذه الاهوار تمتد الى الحدود الايرانية حيث تتصل من هور العظيم الى هور بني طرف احدى عشائر الاهواز .

« السبب المكون للبطايح »

يتكون أولا من دجلة العوراء وهي دجلة البصرة وذلك لان اجرافها رخوة فتعور وتتفتق وتمر باحادير ومنخفضات وكثيرا ما ردمت بالمسنيات واقيمت عليها السدود والسكور فاعي أمرها ، ويستفحل أمر البطايح عندما تفيض دجلة والفرات فيضانا عاليا فيضيق عقيقاهما وتكثر الخروق فينشق

الفرات وتعود دجلة من اماكن عديدة ، وأعظم خروق الفرات ما يكون من « المسيب » وان هذا الاسم يدل على تسيب الفرات من هناك والمسيب بلدة على الفرات الاعظم وللمحافظة اقيمت هناك سدة كبيرة تعرف بـ اسم «أم السخول» وللفرات خرق ثان بين الانبار والفلاليج اقيمت عليه سدة منيعة تعرف باسم « السرية » لانها انشئت في عهد سري باشا وينفتق الفرات فيما بين السماوة والناصرية ، أما دجلة فتنبثق من محلات عديدة من نهر الحرية ومن نهر الحسينية قبالة الكوت ودون النعمانية ، وتوجد امكنة كثيرة على دجلة تسمى الخروق ، من كل هذه الفتوق ينساب الطاغي فتكون بطايح وكثيرا ما اعانت على اهمال تلك الفتوق الاحن والحوادث ، حدث ذلك في عهد الكلدانيين والفرثيين والساسانيين والعهد الاموي والعباسي وفي عهد هولاكو والعثمانيين وعلى أبواب الحرب العامة .

« العمل على اصلاح البطايح »

لقد تعاطت كثير من الامم بأنواع الاعمال لاصلاح ما يخربه الطاغي ويعبث به التسيب وتحويل الضرر منه الى نفع ، جاء في تاريخ الكلدان ان بعض ملوكهم تعاطى اصلاح البطايح وذكر صاحب النهج القويم ان نبوخذنصر احتفر النهر المعروف في العهد العباسي بنهر الملك للاصلاح . وقد ذكروا ان الفرثيين والساسانيين اقاموا السدود في وجه البطايح وكثيرا ما تردد اسم قباد وانوشروان وابرويز وغيره في القيام

بهذه الاعمال حتى قيل ان ابرويز صلب في يوم واحد اربعين جسارا لتسامحهم في أمر السدود ، وفي العهد الاموي بذلت الملايين في هذا الاصلاح وان أحدهم بذل ثلاثة ملايين درهم على سد واحد ، وفي الناشفة اثار سدود كثيرة منها « التاهي » كما تسميه العامة ويظهر ان هذا الاسم قديم لكنه حرف قليلا فقد ذكر الفيروز ابادى التنهاة ـ وانه سد ولكن حرفه الاعراب فقالوا التاهي .

وفي منازل آل ازيرق سد مستطيل وعال قيل ان الحجاج اقامه في وجه البطايح ولما وجده اصلاحا غاليا اقطعه مسلم ابن عبدالملك فقام باكماله ، وكانت البطايح قبل الاسلام متصلة بجزيرة العرب ومن جيرانها بنو العنبر وباهلة وبشكر ، واخيرا تقدمت في العمران فكانت طهيثا مدينة كبيرة وكانت بازوارد مدينة كبيرة في اخر البطايح . وكانت السفن التي تنفذ من دجلة الى البصرة تجنح حول طهيثا فينقلون حولتها بالزوارق كما هو جار اليوم وتسميه العامة « جوايه » وهذا اللفظ مأخوذ من تكوى الرجل اذا دخل في موضع ضيق وكانت تلك الجوايه تسير في مأزق من القصب حتى تنتهي الى الموضع الذي ليس فيه قصب ويسمونه الهول كما جاء في مجلة لغة العرب واليوم يسمى الكاهن ، ويقال ان عبدالله بن دراج مولى معاوية هو أول عربي قلع القصب وغلب الماء بالمسنيات .

وقف العربي ابن الغدير والرمال على البطايح وهي خور واسع يستنقع فيه الماء فيسبب غمقا ووبالة ومغايص

واجاما يكثر فيهـــا القصب فتكون احراج ملتفة تتخللهـــا خروق عميقة مظلمة كأنها صـــهاريج من قصب أو اروقة اختبى فيهـــا الليـــل الدامس ، تسمعك نغيط البط ونقيق الضفادع وجخف التيار ، وتشغلك فيهـــا حكة الجرجس ، أرض تز ودور تهتز ، وهواء كدر غليظ ، ومـــاء زعاق ، واجام كثيفة فيها الاسود ، وغياض تمرح فيهـا الخنازير ، ومناقع تسيب فيها الافاعى ، لا مبرك ولا مسلك ، مناخ خسيس يهولك فيه دوى الهوام ، تتوسطه تلول هادئة ساكنة لا تعبأ بطوارىء الزمن ولا تخضع للعواصف ومـا هي الا صناديق تاريخ ، هذه البطايح التى استلمهـا العربي فانضها صياصيا منيعة وجلب لها الفعلة والاكره فاصبحت اطما بعد ان كانت اجمـا ، وانتقلت من عقود القصب الى مروج الذهب • وفي كتاب الوزراء ذكر لعمران البطيحة وخراب بغـداد وقد جاء فيه عندما ذكر حوادث ٣٩٢ هجرية ما نصه : لا جرم ان البلد « يريد بغداد » قد خرب وانتقل اكثر أهله عنه فمنهم من مضى الى البطيحة ومنهم من اعتصم بباب الازج ومنهم من بعد الى عكبرة والانبار وفى هـــذه السنة مضى أبو نصر سابور الى البطيحة • انتهى كلام حفيد الصابي • وذكر غيره ان البغاددة تكاثروا فى البطايح ومن القرن السـابع للهجرة أخذت البطايح بالانتقاض ، وفى عهدنا هذا قد انحسر المـاء كثيرا عن البطايح وأخذنا نشاهد عند الجفاف سيفا أو جرفا باديا فى وسط بطايح الفرات وهذا غير نهر الشافي القـديم الذى أخذت ضفتاه تظهر كأنه يريد الانعزال عن البطـايح ،

وأهم المواضع التي بقيت حتى الان بطايح الحمـــار وهور الحويزة وهور العظيم بكسر العين وهور السنية وهور الغموقه وهور الصديقه وهور الحصونه وهور بني حكيم وهو الدكه وهور ابي قداحه وهور الشـــنافية وهور ابن نجم السلهوه وكل هذه منها الدائم ومنها الموقت فمن الموقت هور ابن نجم السلهوه ، لقد اطلعت على صك تمليك صـادر من الحكومة الصفوية المحتلة ونصه انها اثبتت في دفترها السلطاني ملكية السلهوه للمائل من آل كمونه الاسرة العلوية المعروفة في الكوفة والنجف .

« مدن البطايح وقراها »

تنقسم مدن البطايح وقراها الى كلدانية وفارسية وعربية . السومرية والكلدانية :

ـ أور ـ سنكره ـ لاراشام ـ جوخى ـ اما ـ زرغل ـ هبا ـ دبو ـ وركا ـ لكاش ـ بسمايا ـ نيبور ـ مارو ـ بايدو ـ اكاد ـ كيش ـ كيسيك ـ ابزك ـ طهيثا ـ برس ـ .

« أهل الاهوار ومساكنهم »

اذا عرفنـــا ان العـراق ومنـــه البطـــايح كان بلد الامبراطوريات لامم ودول عديدة وان انهزام دولة أمام دولة فى الزمن القديم لم يكن انهزام شعب وحلول اخر بمكانه

وانما كان زوال حكومة وابادة سلطان أما الشـــعب المغلوب فيبقى ماكثا ولا يهاجر الا بسبب الكوارث القاهرة • اذا عرفنا ذلك فلا شك ان أهل البطايح خليط من عدة اقوام المغلوب مندمج فى الغالب وان قوة اللغة العربيـــة التى عرفت باللغـة الاكاله جعلت الشـــعار والنعـار للعرب فكانت لهم الامارات

الفارســـية :

ـ كســـكر ـ قرقيسيا ـ سراف ـ اسكاف ـ قوسان ـ ميسان ـ المشان ـ بادرايا ـ باكسايا ـ المذار ـ السن ـ الابلة ـ قوسان ـ فيروزاباد ـ جبل ـ زندرود ـ شادسابور ـ بسرسى ـ خسر وفيروز ـ ساباط ـ شرابيط ـ ماسرجيان ـ حطامان ـ بزوفر ـ ساسى ـسابس ـ سرطغان ـ بازوروت ـ شلوتر ـ جستخان ـ بلاس ـ جرجين ـ دورفده ـ دوقره ـ سمرقند ـ النازور ـ صريفين ـ شلمغان ـ الافشوليه ـ برجلان ـ الخسروانيه ـ الشرابيط ـ طبريا ـ بثا ـ اوداز ـ الفاروث ـ •

العربيـــة :

البصرة ـ واســـط الحويزة ـ الجازره ـ الجامده ـ ـاجام ـ البريد ـ القرنه ـ الصباغيه ـ نهر صالح ـ الدورق ـ ـ الدير القبان ـ خزان نهر الزط ـ نهر الشافى ـ الحصان نهر الجنب الحدارية الغـاضرى الصليق العبـــد الشامانيـــة العمرانية المحمدية الكوانين الحالة المدينة الشرش العرجـــه سوق الشيوخ الناصرية الخميسية الخضر الشـطرة الرفاعي قلعة سكر الحي ساقية سليمان البدعة الساقطية شافيا الشرطة

ـ الحوز ـ الرياضية ـ الزبيدية ـ الجرارة ـ حبية ـ الذنابه ـ ـ الركه ـ الشوكه ـ أبو الشـوك ـ الجاروب ـ الدوب ـ الطويلة .

« الماثل من مدن البطـايح »

« الحويزة » « المدينة » « القرنة » « العمارة » العرجة وهذه كانت عمارة قريبا من موقع الناصرية على الجانب الايمن للمنحدر أسست فيها الحكومة العثمانيـة أول ما أسست فى تلك الانحاء قضاء اداريا فيه قائمقـام ومحكمة فيهـا قاض وتوطنها الناس ومنها انتقلت الحكومة الى سوق الشيوخ .

« سوق الشيوخ »

« الناصرية » « الشطرة » « دكة العبد » « الرفاعي » « الجزائر » .

ظواهر ظهرت فى جهة الفرات بعـد ان قل التبطح وانحسر السائب ، فاحتل تلك الظواهر جماعه من الصيادين والزراع ، بنوا بيوتا من القصب وخصاصا على سيف تلك الناشفة وربما انشـأ الصيادون جايش وجآجىء واكنه ثم ما زالت الظواهر تتسع والناس يحملونها من جهة الفرات حتى صارت وكأنها سدة واحدة تمتد بتقطع من حيال موقع سوق الشيوخ الى البصرة وبعض من الجزائر كانت ولا زالت فى شـط العرب فوق البصرة وتحتهـا ولم تحافظ الجزائر على حال فكانت بين السعة والضـيق وبين الهبوط والارتفاع خربت وغرقت بكثير من القلاة والفتن وزهت فى زمن الدعه وأول

زهوها فى القرن التاسع للهجرة واخر دور من ادوارها القرن الثالث عشر فى عهد ناصر السعدون •

أما قراها فكثيرة ولم تزل تعرف باسماء الانهار التى تمر بها أو القبائل التى تنزل بها ، وتنقلت عاصمة الجزائر فكانت واسط وكانت البصرة وكانت الحويزة ثم مدينة بني منصور ، وأشهر قراها القديمة الصباغية ونهر صالح وهاتان القريتان اخرجت كثيرا من أهل العلم والادب وفى النجف اسر علمية كبيرة ترجع الى هاتين المحلتين منهم آل السيد نعمة الله ومنهم آل الشيخ أحمد الجزائري ومنهم آل المظفر ومنهم آل الحلو

أما بقية قراها المهمة فقرية بني حميد ونهر عنتر وهو يشتمل على ثلاثين قرية تقريبا ومثل هذا العدد من الانهر والجداول •

وكانت الجزائر ميدانا للحرب خصوصا فى عهد الصفويين والعثمانيين ومما امتحنت به الجزائر ان بعض عملاء الاتراك يشجعهم بعدهم عن عاصمتهم على الانفصال عن تلك العاصمة البعيدة ، وكانت الجزائر عرضة للحروب والفتن لانها كانت محلا يعتصم به اولئك المنشقون عن عاصمتهم • ويعين على ذلك كثرة مغايصها واجامها فكانت أمنع المتاريس للثوار وهي هي التى جعلت واسط والبصرة والحويزة مدنا للثورة والثوار ومنها ابتدأت ثورة المشعشع محمد بن فلاح مؤسس امارة الموالي التي سوف نوافيك عنها فى امراء البطايح والجزائر •

وفى القرن العاشر للهجرة حمل على الجزائر المولى

مبارك بن عبدالمطلب بن حيدر بن محسن .

وفى القرن الحادي عشر ثارت الجزائر فنهد اليها المولى علي خان وبذلك يمدحه ابن معتوق :

لولا ايابك للجزائر ما صفت
منها مشارع مائها المتكدر
وكسوتها حلل الامان وانها
لولاك اضحت عورة لم تستر

وثارت الجزائر فى عهد المولى منصور وبذلك يقول ابن معتوق :

وعدى يطوى القفار الى ان
نثرت خيله ثراء الثغور
وأتت في الضحى الجزيرة تعدوا
باسود تروعها بالزئير

وقد استولى المولى منصور عليها واطفأ الثائرة واستمرت الثورات وفى القرن الحادى عشر كانت تتنازع الجزائر اربع حكومات حكومة القبان وحكومة الدورق وحكومة الحويزة وحكومة البصرة وذلك يوم كان النزاع بين الفرس والعثمانيين ... فكانت شيراز تتلاعب فى الحويزة للفرس وكانت بغداد تتلاعب بالقبان والبصرة للعثمانيين ..

وفى عهد آل افراسياب اندمجت القبان بالبصرة وصارتا حكومة واحدة واخر حاكم مستقل فى القبان هو بكتاش اغا وكثيرا ما انتفضت الجزائر على البصرة بعد عهد افراسياب وذلك لثقل وطأة الاتراك .

وآخر حرب فى الجزائر الحرب التى اثارهـــا الشيخ حسن ابن خيون زعيم بني أسد .

وفى عام ١٠٧٨ للهجرة اضطر العثمانيـون ان يفتحوا البصرة مرة ثانية وكان دخولهم الاول على يد اياس باشـــا ودخولهم الثانى بقيادة مرتضى باشا ..

وانتقض أهـــل البصرة على مرتضى بعد حين فجاء الى البصرة حسين باشا آل افراسياب وتجددت الحملة التركيـــة بقيادة ابراهيم باشا وفى هـذه الحرب ابلى الجزائريون البلاء الحسن وانحسم الامر صلحا ، ثم جـــدد الاتراك الحمـلة بقيادة يحى اغا التى قضت على حكومة آل افرسياب ، وهذه الموقعة الاخيرة دامت أربعـة أشـــهر وكانت حملة الاتراك شديدة وجيشهم لهاما ...

قال الشـــيخ نعمة الله الجزائرى من علماء الصباغيـة اتى الينـا جيش الســلطان محمـد الرابع فكانوا يرمون قلعة الحصار كل يوم ألف قذيفـة مدفع وكانت الارض ترجف تحت اقدامنا وهذه القلعة التى ذكرهـا السيد نعمة الله هي العلية نسبة الى علي باشا آل افراسياب وكانت قلعة صـغيرة عنـــد ملتقى الرافدين « القرنة » وحولها الجزائيون ولـكن وسعها وجدد بنائها علي باشا فعرفت بالعلية .

« امراء البطايح والجزائر »

يظهر من سير التاريخ ان امارة البطايح والجزائر كانت خطيرة ، وكان امراء البطايح يبذلون سواد عيونهم للاستيلاء

عليها ، فمن تراجم آل شاهين وبني معروف ومعز الدولة الديلمي وآل المظفر وآل ابى الخير والموالي وآل افراسياب وال سعدون تظهر أهمية هذه الامارة التى كثيرا ما اجيرت على السلطان البويهي والخليفة العباسى وقواد الاتراك والفرس واستقلت معتمدة على كفائتها وكفاءة ابنائها ولو حصل لنا التاريخ الواضح عن الكلدان وبلادهم لانكشفت اشياء واشياء ... وبرغمي ان اطوى هذا الفصل لتعذر الاطلاع عليه كما انى لا اعرف شيئا عن امرائها ايام الفريشيين الفرس والساسانيين وأول ما بلغنا اخبار متقطعة عنها أيام كسرى ابرويز وكسرى فيروزوقد تحكمت فيها بعض ملكات فارس ولما جاء دور العرب استلمها الامراء منهم يدا بيد ، وتأسست فيها مع الزمن عائلات أميرية عديدة وقد يجيء عليها زمن فترة يحكمها فيه عمال الجباية وأمراء متفرقون لانكثرث باحصائهم واخبارهم لصعوبة ذلك فى تاريخ مظلم مشوش مثل تاريخ البطايح والجزائر .

وفى بداية العهد الاموي كانت البطايح شبه امارة لعبدالله بن دراج ثم لحسان صاحب المنارة المعروفة هناك بمنارة حسان ثم لخالد بن عبدالله القسرى ولم تكن امارة مستقلة بل تابعة لولاية الخراج وعاملها فى العراق ، ولما خط الحجاج مدينة واسط وهي أم البطايح صار الحجاج امير البطايح الكبير .

وفى العهد العباسى صارت ملكا مقطوعا لداوود بن عبدالله العباسى ثم صارت من ضياع الخلافة وأول عامل من قبل

العباسيين هو خالد بن عبـــدالله .. وهذه ولايته الثانية على البطايح ثم سعيد بن زيد ثم عمر بن فرج ...

وذكر الصفدي في نكث الهميان ـ صفحة ١١٥ ـ ان أحمد ابن بختيار ولي البطايح هو وأبوه من قبـــل ولما هان أمر العباســـيين انتقلت امارتها الى معز الدولة وبقيت في يده حتى عام ٣٢٨ انتزعها منه عمران ابن شاهين الخفاجي .

وقد بقيت هذه الامارة بيد عمران ابن شاهين من اهالى الجامدة من قرى البطايح الى ان توفي عام ٣٦٨ وكانت ولايته أربعين عاما طوى فيها صفحات مهمة وولي ابنه الحسن وتوفي الحسن ابن عمران وتولى اخوه الحسين ابن عمران وفي عام ٣٧٢ قتل الحسين وختمت امارة آل شاهين .

« امارة ال المظفر »

ان المظفر ابن علي ابن الحاجب كان قد طمع بالبطايح فولى عليها ابن اخته مهذب الدولة وكان حازما متيقظا حسن السيرة وكانت ولاية المهذب عام ٣٧٣ واتصل المهذب بملوك الاطراف كما اتصلوا به وزوجه بهـــاء الدولة البويهي ابنته واحتمى به القـادر العباســـى فحماه حتى جاءته الخلافة في عام ٣٩٤ .

وتغلب أبو العباس ابن واصـــل على البطيحة واخرج المهذب منها وكان ابن واصل يتزلف الى الملوك ويتقرب حتى اتصل بالمهذب فتقدم عنده واتفق ان اســتعمله على جيش جرده للمناجزة ثائر على الســـلطان ونجح ابن واصـــل وافاد مالا وسلاحا قوى بهما فبادر الى خلع المهذب .

وقد ذكر حفيد الصابي فى كتـــاب الوزراء شيئا عن عظمة المهذب .

وتوفي مهـــذب الدولة عام ٤٠٨ وتولى من بعـده ابن اخته أبو محمد عبدالله واستولى على البلاد ولم تطـــل ولايته أكثر من ثلاثة أشهر واتفق الناس على الشرابي وانقرضت ولاية آل مظفر بذلك الاتفاق .

وفى عام ٤١٠ سير سلطان الدولة قائده صدقة ابن فارس الى البطايح التى اصبحت اقطاعية بيد ملوك بغداد ، وفى عام ٤١٢ توفي صدقة وصارت البطائح الى ابي الهيجاء محمد ابن عمران ابن شاهين ولكنه فى الاخير فشـــل وقتله سابور ابن المرزبان الذى تولى على البطائح .. وفارقها ســـابور فى عام ٤١٨ .

وفي عام ٤٢٠ خطب في البطـايح لابي كاليجار . .

وفى عام ٤٣٣ استولى ابن الهيثم على البطائح وفى عام ٥١٠ دخلت فى ولاية دبيس ابن صدقة صاحب الحلة .

« امارة ال ابي الخير »

وأبو الخير زعيم من زعماء البطايح انتهت اليه رياسة قومه ، وبعد امارة ابي الخير هـــذا أصبحت امارة البطائح الى مهـــذب الدولة المختص بابي الخير ومن كبـــير امرائه وتوسعت امارته فانضمت اليها واســـط ووقعت له حرب مع صدقة سيف الدولة صاحب الحلة وانضم الى سـيف الدولة بدران ، وبدران هذا كان صهرا لمهذب الدولة ، وبعـــده

تولى على البطايح النفيس ابن مهـذب الدولة .. ومن بعده نصر ابن نفيس .

وفى عام ٥١٦ قتـــل المظفر ابن حماد نصر بن نفيس وصارت البطيحة الى المظفر .

« امارة بني معروف »

وهم قوم من ربيعة كانوا يتقـــدمون بني المنتفك ولهم الكلمة النافذة والرأي الاعلى وكانت منازلهم البصرة وضواحيها ولما اراد الخليفة العباسى المستنجد ، اجلاء بني اســد وكانوا مبثوثين فى البطايح مما يلى الحلة السيفية استحضر الجنود وكان اهم من جلب عليهم مقـــدم المنتفك ابن معروف مع خلق كثير ولما تم جلاء بني أســـد سلمت بطائحهم الى ابن معروف وجماعتـه فنزلها هـــذا هو مبـدأ بني معروف فى البطائح وذلك عام ٥٥٨ .

وصارت منـــازلهم بطائح الغراف ثم درجوا الى بطايح واسط مما وراء واسط ثم درجوا الى بطايح البصرة ..

ويقال للمائل فى هذا البيت كلمة أمير وزاحموا عباده ووقعت بينهم وبين بني معروف وبني أســـد وقايع ولم تكن لهم الامارة الحقيقية ولا لغيرهم وكل ما هنـــاك مناطق نفوذ حتى ظهرت امارة الموالي .

« امارة الموالي »

كانت امارة الموالي ما بين واســط والاهواز أو ما بين

البطايح والجزائر وخوزستان فنحن نذكر شيئا عن نشأتها الاولى التى كانت حول البطايح ونطوى الكشف عن امارتها الواسعة وامرائها الذين انكشف نفوذهم عن البطائح وعاد لال افراسياب ، ففي عام ٨٠٨ نهض السيد محمد ابن فلاح الموسوي الواسطى وكان أولا فى البذج والنازور والغاظري وهي ثلاث قرى من قرى البطايح أو بين البطايح وخوزستان • وتاريخ ولادة هذا الناهض غير جلي ، ولكنه وجد فى واسط ايامه الاولى وقضى زمنا فى الحلة والكوفة وتوفي فى الحويزة سنة ٨٧٠ أما نسبه فهو محمد ابن فلاح ابن عبدالله ابن الحسن ابن اليعلى المرتضى ابن عبدالحميد النسابه ويتصل بالامام موسى بن جعفر عليه السلام • واخذ السيد محمد يذيع بين رفاقه وأهل مجلسه أنه هو المهدى الموعود ، ويتصل نبأه بالشيخ ابن فهد فينكر عليه ويوبخه الا ان محمد غادر الحلة الى الكوفة ومنها الى واسط وأخذ يذيع فى اطرافها أنه المهدى الموعود وقد جاء وقت ظهوره ، وكان يؤثر على البسطاء ومشت اخباره الى الحلة الى الشيخ ابن فهد فشدد النكير وكتب الى الامير العبادي ان يقبض الشيخ على محمد ويقتله •• ولكن السيد محمد احتال على خلاص نفسه وفلت من يد الشيخ ••

وبعد حروب كثيرة بينه وبين حكومة الحويزة استولى على الحويزة وكانت تابعة لشيراز ونزل الموسوي بقرية أبو الشول محاصرا أولا للحويزة فدخلها ولكنه كان يعتقد ان أمره مهدد وكان يخشى على غنيمته فولى وجهه نحو بغداد

وتحرك اسفنديار ميرزا ابن قرا يوسف المغولي حاكم بغداد لنصرته وانحدر الى واسط حيث اجتمع هناك بأمراء الحويزة ...

وقد عرف الموسوي بان اسفنديار يكيد له ولا يعينه فحاول التغلب عليه منسحبا أولا الى موضع الطويلة وقدم للامير المغولي كثيرا من الاموال فاستماله ، وعند ذلك استقرت ولاية المهدي وفى عام ٨٥٨ توجه حاكم المغول الى شيراز وخلي العراق من سلاطين المغول فقصد المولى علي ابن محمد المشعشع واسطا وحاصرها واستولى عليها بعد خرابها فدخلها ووضع عليها عاملا اسمه دراج واتجه الى النجف وصادف قوافل الحاج ونهبها واتجه للاستيلاء على بغداد ولم يستطع الولوج اليها ، بعد الاقامة حيالها تسعة أيام قفل راجعا ...

وفى عام ٨٦١ قاد جيشا لفتحها فاصاب مقتله سهم طائش قضى عليه وعاد جيشه الى أبيه ، وكان المولى علي غريبا فى اطواره وقد اتصل شره حتى بابيه لانه جر كل نفوذه وجنوده وكان هو الامير الحقيقي أما أبوه فشيخ واهن ومن أجل ذلك لم يؤثر مقتله على أبيه .

وفى عام ٨٧٠ للهجرة توجه أحد امراء عباده الى بغداد وجلب كثيرا من الجنود للفتك بالموسوي ولكنه فشل ولم يبق منازع للسيد محمد لكنه فى آخر هذا العام توفي .

وقام من بعده ولده المولى محسن ومن محسن انتقلت الى اولاده واحفاد السيد محمد وهم المولى ايوب والمولى علي الثاني والمولى فلاح وكان أحسن اخوانه طالعا ، وهو الذى حفر

نهر الفلاحي الذى نشأت عليه قرية الفلاحية ومن بعد المولى فلاح رجع الامر الى ولده المولى بدران ثم المولى سجاد ثم المولى مبارك ابن المولى عبدالمطلب ابن المولى حيدر ابن المولى محسن وحيث استقر أمر الموالي فاني لا اتابع البحث عن تعداد امرائهم ..

ودامت امارة الموالي الى القرن الثالث عشر ولكنها أصبحت امارة واهنة فى الاخير انتزعها أمير المحمرة الشيخ خزعل ونبغ فى عهد الموالي كثير من الادباء والعلماء مثل المولى خلف ومثل المولى علي خان .

« ال افرسياب »

ان افراسياب الديري هو ابن حسين باشا والي البصرة ولد فى الدير المكان المشهور فى نواحي البصرةالتى ينسب اليها التمر الديري ويقال ان هذا الدير يعرف بدير الهدار، وذكر ابن رحمة الله فى كتاب صدر الحمام ان آل افراسياب من بقايا آل سلجوق وان أهل الدير اخوال افراسياب ابن حسين باشا الذى أسس هذه الامارة ودامت سبعين عاما وأول من حكم منهم افراسياب ثم حكم أبنه علي باشا واستمرت حكومته ٤٥ عاما وحكم من بعده حسين افراسياب ودام حكمه ٢١ عاما وحكم منهم يحيى آل افراسياب ...

وكان آل افراسياب يحسبون انهم مستقلون بما لهم من امتيازات كبيرة ولكن لم يكتب لهم الاستقلال رسميا .

« امارة الطوال »

ونعرف منهم خمسة وهم غانم ابن زيد ومهنا ابن رحمة ومغامس ابن محمد وراشـــد ابن مغامس وقد مر عليك فى بحث البصرة ان راشد هذا هو الذى سلم مفاتيح البصرة الى العثمانيين .

« آل شـــبيب »

هم اسرة من اشراف الحجاز تألفت من أخوة أربعة حسن ومسرور ومهنا وبركات اختلفوا فافترقوا وجاء حسن ومعه ولده شبيب وابنته نوره الى محـل فى نجد وانشـــأ فيه قرية سميت باسم ولده «الشبيبة» تبعد عن منازل عنيزة مسيرة ١٢ ساعة للهجانة ووسم ابله بسمة معروفة عند آل سعدون تسمى أيضا الشبيبة كما ان نعار آل سعدون حتى اليوم اخوة نوره ومات الولد شبيب والبنت نوره فى تلك القرية فتحول حسن جزعـا ونزل الباطن غربي الفرات فى بادية العراق المعروفة بالشامية ، والباطن حد من حدود نجد والعراق وكانت منزلا لبني مالك اخوة بني المنتفك فنزل حسن على زعيم بني مالك شيحان ابن خصيفة وقام شيحان بتكريم وفادته ، وبعد أربع سنوات انتقلت زعامة بني مالك الى عبدالله فاقترن الشـريف حسن بأبنـة زعيم بني خالد وهم من بني مالك ، وولدت له محمدا وعبدالله وشبيبا ، قتل عبدالله وبقيا اخواه ونشأ نشأة كريمة وكانت لهم النبـــاهة وكان بنو مالك يرضخون لامارة الطوال زعماء المنتفك يومذاك وحكام البصرة واتفق ان تمرد

زعيم بني مالك عبدالله على امارة الطوال فوجه الامير راشد جيشا لا قبل له به فتوسط محمد ابن الشريف حسن بينه وبين أخواله ، ولقي حظوه اثرت له فى قلوب الناس وخصوصا بني مالك وأصبح الوسيط المقبول عند الامير ، وتمكن من قلوب بني مالك حتى رغبوا اليه والى أخيه شبيب ان يتقلدوا الامارة عليهم ، وكان ذلك مبدأ تولي الزعامة على بني مالك من قبل الشيخ شبيب ، واختلف بعد ذلك مع حكام البصرة الي احتلت من قبل الشيخ شبيب وولى الزعامة من بعده مانع الاول ومن بعده الشيخ حسن ومن بعده شبيب الثانى ومن بعده مانع الثانى ومن بعده الشيخ محمد .

ولما درج الشيخ محمد ترك اولادا متعددين عبدالله وهو جدالشيخ ثويني ، ورضوان وهو جد آل رضوان ، وسعدون وهو أبو العائلة المعروفة بآل سعدون .. ويموت الشيخ محمد، وبه انتهت امارة الى شبيب وجاء دور امارة ال سعدون وقد ابتدأت بسعدون بن محمد وانتهت بسعدون المنصور وقد تداول المشيخة منه ١٥ شيخا هم سعدون ثامر حمود عقيل ماجد ، فيصل ، عيسى ، بدر، فهد ، فارس، منصور، ناصر ، فالح ، سعدون .

وقد ذكرت الشيء المفصل عن هذه العائلة فى كتاب ذكرى السعدون .

« الجوازر »

وغلطا يطلق عليها اسم الجزائر فان الجزائر ظواهر في وسط البطايح ظهرت بالحمل والسدود أما الجوازر فتطلق

على ما انحسر عنه المد والجزر ومنها بطيحة الغراف التي أصبحت من الجوازر وتسمى اليوم بلاد « الجوازر » وقد جاء ذكر الجوازر فى كتب الاثار وكتب المسالك والممالك وذكرها ياقوت الحموي فى الكلام على شارسابور .

وأهم الجوازر اليوم الغراف وسقيه وان ذلك النهر المبارك يبلغ طوله ١٨٠ كيلم وعرضه ٥٠ مترا وعمقه ٥ أمتار عليه ناحية الموفقية ومدينة الحي وناحية الزبيدية وناحية قلعة سكر وقضاء الرفاعي وناحية حطامان والبدعة وقضاء الشطرة وناحية دكة العبد وفيه من القرى المهمة ما يبلغ ٢٣٥ قرية .

« انتهى الكتاب »

« مصادر كتاب العرب والعراق »

الخليج العربي : للدكتور محمود علي

الخليج العربي : لجان جاك الابريني

تاريخ قطر : للدباغ

مختصر تاريخ الكويت : لراشد الفرحان

نهاية الادب للقلقشندي

جزيرة العرب : لحافظ وهبه

مجلة لغة العرب : للكرملي

كاظمه في التاريخ والادب

تاريخ الاحساء لمحمد ال عبدالقادر

معجم ما استعجم : للبكري

تاريخ العرب : لفيليب حتي

العرب والملاحة : للدكتور جورج

ملوك العرب : للريحاني

تاريخ العرب : لجورجي زيدان

تاريخ الاستعمار في الخليج : للعقاد

معجم قبائل العرب القديمة : للكحاله

تاريخ البحرين : للنبهاني

تاريخ الحيرة : لغنيمة

الطبري

ابن الاثير

كتاب الوزاء : لحفيد الصابي

انتهى طبع هذا الكتاب في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٦٣